

لشيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ - ٧٢٨هـ

حققه وخرج أحاديثه
عبد القادر الأرناؤوط

الناشر
مكتبة دار البيان
ص.ب ٢٨٥٤ - دمشق

التوزيع
مكتبة المؤيد
ص.ب: ١٠ - الطائف

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا من سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل لـه ومن يضلل فلا هـادي له ، وأشهـد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد ، فإن العـداء بين الإنسـان والشيطان قـديم ، بدأ من اللحـظة التي وجد فيها آدم عليه السلام ، حين أمر بالسجود لآدم فأبى وتكبر وعصى ، فجره كبرياؤه إلى سلسلة من الـذنـوب ، وجعله لا يـدخـر وسعـاً في إغـواء بني آدم ، وأن يـزين لهم المعـاصي حتى يقبلوا عليها راغبـين ، فأنـزل الله تعالى من أجـل ذلك الكتب ، وأرسل الـرسل ، وتعهـد عباده بـالوصـايا ليخلصهم من شـره ، ورغم نصـائحـه المتكـررة ، ووصاياه البليغة ، وتحذيـره الشديـد ، فقد انقسم النـاس إلى فريقـين (فريقـاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة) وإلى فريق في الجنة ، وفريق في السعير . ففريق الجنة هم أولياء الرحمن (لهم البشرى في الحياة الـدنيا وفي الآخـرة) ، وفريق السعـير هم أولياء الشيطان ﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴾ .

وفي هذا الكتاب الذي نقدمه للناس في وقت تسلط فيـه الشيطان عـلى أكثر بني الإنسان ، وضاعت فيه الفوارق بـين أولياء الـرحمن وأولياء الشيـطان، بين فيـه مؤلفه رحمـه الله تعالى : أن لله تعـالى أوليـاء من النـاس ، وللشيـطان أوليـاء منهم ، وسـاق الآيات التي تشهد بذلك ، ثم ذكر الفرق بـين أولياء الـرحمن وأولياء الشيـطان : وبين أن أولياء الله تعالى هم المؤمنـون المتقون، وأن أفضـل أولياء الله هم الانبيـاء ، وأفضل

الأنبياء المرسلون ، وأفضل المرسلين أولو العزم ، وأفضل أولي العزم سيد ولد آدم محمد ﷺ . وبين أن الناس متفاضلون في ولاية الله بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى .

ثم بين أن أولياءه على طبقتين ،سابقون مقربون ، وأصحاب يمين مقتصدون ، وأنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد ، ولا يمكن أن يكون أحد من الكفار والمنافقين ولياً لله لانعدام الإيمان والتقوى ، وكذلك المجنون لا يكون ولياً لله . وأن من يظهر الولاية ولا يؤدي الفرائض ولا يجتنب المحارم لا يكون ولياً لله ، ولو ظهر على يديه خوارق العادات ، فإن الشيطان يعينه على ذلك ، وأن أولياء الله لا يتميزون بلباس خاص ، ولا يقتصرون على جماعة معينة ، بل يوجدون في جميع أصناف الأمة ، ثم تكلم عن الصوفية وأصلها ، وأنكر على الذين يلوذون بالصمت الدائم ويعتذرون عن أكل الطيبات ، وساق لهم من الأحاديث ما فيه الكفاية . وذكر أنه ليس من شرط الولي أن يكون معصوماً ، بل يجوز أن يخطىء ، ولهذا لا تحسب طاعته في كل ما يأمر ، بل يعرض أمره على الكتاب والسنة ، فما وافقهما قبل ، وما خالفهما رد .

ولا يجوز للولي أن يعمل بما يُلقى في قلبه إلا بعد عرضه على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، وأن هذا من أهم الفروق بين الأنبياء وغيرهم .

وذكر في هذا الكتاب معنى الحقيقة والشريعة ، وأن الحقيقة هي دين الله تعالى الذي ألزم به الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين ، وأن دين الله هو الإسلام ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ .

له ، ومن ثم فدين الأنبياء واحد (وهو التوحيد) وشرائعهم مختلفة ، وأن الاتفاق انعقد على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء ، وأن أمة محمد ﷺ أفضل الأمم ، وأن القرن الأول أفضل القرون ، والسابقون منهم أفضل الصحابة ، ونبينا محمد أفضل الأنبياء عليهم السلام ، وأتباعه ليسوا محتاجين إلى غيره من النبوات المتقدمة كما احتاج غيرهم من بقية الأمم ، وان من ادعى أن الولاية أفضل من النبوة فهو كافر . ثم رد على من حكَّم العقل وقدمه على الشريعة ،وبين أن حديث « اول ما

خلق الله العقل » الذي يستشهدون به في هذا غير صحيح ، وكذلك رد على فكرة وحدة الوجود وعلى القائلين بالاتحاد والحلول ، وأن ذلك كفر ، وبين أن كشف الأنبياء أعظم من كشف غيرهم ، وأن النبوة قد انقطعت فلا نبوة بعد محمد ﷺ ، ولا رسالة بعد رسالته ، وأن المعصية مخالفة الأمر لا مخالفة الارادة ، كما يزعم بعض الجاحدين .

وتحدث عن معنى معية الله تعالى في القرآن ، وأنها تكون معية علم ، أو معية نصر ، على حسب ورود النص .

وأجمل في الكتاب عقيدة السلف الصالح، وبين أن الله تعالى بائن من خلقه، يوصف بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسول الله ﷺ ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ وأنه المذهب الأسلم والأحكم ، وأن السلامة كلها في اعتناق عقيدة السلف ، وان أبلغ العلم أن يعرف الانسان قدره فلا يتجاوزه ، وبين أن ما في الوجود بقضاء الله تعالى وقدره ، وارادته وقدرته ، وأنه تعالى أمر بطاعته وطاعة رسله ، ونهى عن معصيته ومعصية رسله، ورد على من زعم أن القدر حجة لأهل الذنوب، وأماط اللثام عنه وكشف النقاب عن معناه ، وبين معنى الشرع ، وأنه قد يراد به ماأنزل من عند الله تعالى ، وهو الكتاب والسنة المفسرة له ، وقد يراد بالشرع حكم الحاكم وقضاء القاضي ، ويمكن أن يخطىء الحاكم ويصيب . وقد يراد بالشرع أيضاً قول أئمة الفقه ، كالائمة الأربعة والأوزاعي والليث وداود وغيرهم ، ويحتج لأقوالهم بالكتاب والسنة، وأنه ينبغي أن نفرق بين الشرع المنزل والشرع المؤول والمبدل .

وتكلم أيضاً عن كرامات الأولياء ، وأنه تكون لحاجة في الدين ، أو لحاجة بالمسلمين ، ولا تحصل إلا باتباع الرسول ﷺ ، وهي داخلة في معجزات رسول الله ﷺ : واستطرد طرفاً من معجزات رسول الله ﷺ ، وطرفاً من كرامات أصحابه والتابعين لهم ، وبين تلبيس الشياطين على أعوانهم ، وأنهم يأتون من الغرائب ما يوحي إلى الناس أنهم أولياء الله ، وما كانوا أولياءه ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ فجزاه الله تعالى خيراً ، فقد أجاد وأفاد .

عملنا في الكتاب

لقد قمنا بضبط النص ، وتفصيله ، وتصحيحه على النسخ المطبوعة ، وشكل الآيات القرآنية وترقيمها ، وتخريج الأحاديث والرجوع فيها إلى المصادر التي نقل عنها المؤلف رحمه الله تعالى ، وبيان صحيحها من ضعيفها والتوسع فيها لمن أراد أن يرجع ويتأكد . ووضعنا فهرساً للأحاديث النبوية على الحروف الهجائية تسهيلاً للقارىء الكريم .

ونسأل الله تعالى أن يثيبنا على ذلك .

١ ربيع الأول ١٤٠٣ هـ

خادم السنة النبوية
عبد القادر الأرناؤوط



ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية

هو الإمام الحافظ الفقيه المحدث ، ناصر السنة وقامع البدعة، شيخ الإسلام ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني الدمشقي .

إنه سليل أسرة كريمة، اشتغل أبناؤ ها بالعلم حتى عرفوا به، وبرزوا فيه .

فأبوه عبد الحليم بن عبد السلام، شهاب الدين نزيل دمشق، ولد بحرَّان[1] سنة (٦٢٧) هـ ، وسمع من أبيه عبد السلام وكثيرين غيره . قرأ المذهب الحنبلي على أبيه حتى أتقنه ، ودرَّس وأفتى وصنف . وكان إماماً محققاً، كثير الفنون، دَيِّناً متواضعاً، حسن الأخلاق ، كما كان جواداً من حسنات العصر، توفي رحمه الله تعالى بدمشق سنة (٦٨٢) هـ .

وأما جده عبد السلام بن عبد الله الفقيه الحنبلي، الإمام المحدث المفسر الأصولي النحوي ، وأحد الحفاظ الأعلام المشهورين، وقد ألين له الفقه كما ألين لداود الحديد، وهو صاحب كتاب« منتقى الأخبار» الذي شرحه الشوكاني إمام القطر

---

(١) حَرَّان : بلدة شمال شرقي تركيا، كانت من أهم مراكز الديانات القديمة، وهي الآن عامرة بعد الخراب الذي أصابها عند احتلال التتار لها أيام رحيل آل ابن تيمية عنها، وهي غير «حرّان العواميد» التي في غوطة دمشق الشرقية ، وكانت تسمى «حران المرج». ومن قال: ان شيخ الإسلام ابن تيمية من حران العواميد، فقد أخطأ ، والنسبة إلى حران : حرناني، وإنما اشتهر بالحراني .

اليماني، وسماه «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار». ولد بحران سنة (**٥٩٠**) **هـ** تقريباً ، ورحل إلى بغداد، وأقام بها عدة سنوات، يشتغل بأنواع العلوم، ثم رجع إلى حرّان ، وتوفي بها سنة (**٦٥٢**) هـ .

وإذا تركنا أباه وجده نجد آخرين كثيرين مشهورين من أعضاء هذه الأسرة الكريمة المشهورة بالعلم والعلماء، وصدق الله عز وجل إذ يقول في كتابه الكريم ﴿ وَالبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف : **٥٨**] .

وإنما سمي كل من هؤلاء العلماء في هذه الأسرة : ابن تيمية، لأن جدهم محمد ابن الخضرحج على درب «تيماء»، فرأى فيها طفلة جميلة ، فلما رجع إلى دمشق وجد امرأته قد ولدت بنتاً : فقال: يا تيمية، يا تيمية ، تشبيهاً لبنته بها، فأطلق على أبنائها : ابن تيمية . وقيل : إن جده محمد بن الخضر، كانت أمه تسمى تيمية، وكانت واعظة، فنسب إليها وعرف بها .

وأشهر أبناء ابن تيمية: هو صاحب الترجمة الحفيد: شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، ولد بحرّان يوم الاثنين في العاشر من ربيع الأول سنة (**٦٦١**) هـ ، وأنبته الله نباتاً حسناً، فعاش بضع سنين في كنف أبيه وتحت رعايته، ثم انتقل أبوه به وبأسرته إلى دمشق سنة (**٦٦٧**) هـ عند قدوم التتار إلى الشام، وكان قد بلغ السادسة من عمره .

وفي دمشق الشام المحروسة نشأ أحمد بن تيمية وترعرع ، ثم درس ونضج حتى بلغ أشده، وآتاه الله تعالى العلم والحكمة، وصار أحد الأئمة الأعلام ، ومن كبار شيوخ الإسلام ، الذين خلدوا على الزمن بفضل ما قاموا به من جلائل الأعمال، وما خلفوه لنا من عظيم الآثار .

ولا عجب أن ينبغ الفتى ابن تيمية، فقد وفر الله العليم الحكيم له عوامل النبوغ ومؤهلاته: وراثة طيبة، عميقة الجذور، بعيدة الأصول، سامقة الفروع، وبيئة علمية أوفت على الغاية، وقوى علمية بلغت حد العجب والإعجاب، وتوفيق من الله

تعالى، وبركة في الوقت، حتى صار فريد عصره ، ووحيد دهره، وإمام زمانه .

حفظ القرآن وهو حدث، ثم أخذ في الدرس وطلب العلم، وأقبل على الفقه والعربية، وبرع في النحو، ثم أقبل على التفسير إقبالاً كلياً حتى سبق فيه، وأحكم أصول الفقه، كل هذا وهو ابن بضع عشرة سنين، فانبهر الفضلاء من فرط ذكائه وسيلان ذهنه وقوة حافظته وإدراكه .

ونشأ في زهد تام وعفاف وتعبُّد، واقتصاد في الملبس والمأكل ، أفتى وله أقل من تسع عشرة سَنة، وشرع في الجمع والتأليف .

وكان له خبرة تامة بالرجال رواة الحديث وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، والصحيح والسقيم ، مع حفظه لمتون الحديث، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه، وعزوه إلى الكتب الستة في الحديث ، ومسند أحمد بن حنبل .

وله في استحضار الآيات القرآنية للاستدلال بها قوة عجيبة. وكان يكتب في اليوم والليلة من التفسير والفقه وأصول الدين نحواً من أربعة كراريس .

شيوخه :

سمع الحديث من ابن الدائم، وابن أبي اليسر، وابن عبدان، والشيخ شمس الدين الحنبلي، والقاضي شمس الدين بن عطاء الحنفي، والشيخ جمال الدين بن الصيرفي، ومجد الدين بن عساكر، والشيخ جمال الدين البغدادي، والنجيب المقداد، وابن أبي الخير، وابن علان، وأبي بكر الهروي، والكمال عبد الرحيم، والفخر علي، وابن شيبان، والشرف ابن القواس، وخلق كثير، وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ .

تلاميذه :

لقد تلقى عن المؤلف رحمه الله تعالى كثير من العلماء المشهورين المشهود لهم

بالفضل، منهم من هو أكبر منه سناً، ومنهم من هو أقرانه، ومنهم من هو أصغر منه سناً .

وممن لازمه وأخذ عنه الإمام شمس الدين أو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي ، المشهور بـ «ابن قيم الجوزية» صاحب المؤلفات المفيدة، وقد لازمه ملازمة تامة، وقد توفي رحمه الله سنة (٧٥١) هـ ودفن بالباب الصغير بدمشق .

ومنهم الحافظ المحقق أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي الصالحي، وقد لازمه مدة، وله مؤلفات نافعة، توفي في سن الأربعين رحمه الله سنة (٧٤٤) هـ ، ودفن بسفح جبل قاسيون بدمشق، وهو صاحب« العقود الدرية من مناقب شيخ الاسلام أحمد بن تيمية» .

ومنهم الحافظ سراج الدين أبو حفص عمر بن علي البزار الأزجي الحنبلي البغدادي، صاحب كتاب« الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ». ولد ببغداد، ثم رحل إلى دمشق، فقرأ على علمائها، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، توفي رحمه الله عند توجهه إلى الحج، يوم الثلاثاء **٢١** من ذي القعدة سنة (٧٤٩) هـ في حاجر بالطاعون العام الذي أفنى الكثير من الناس .

وممن سمع منه وأجازه الحافظ المؤرخ شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن عثمان بن قايماز الذهبي الدمشقي ، له المؤلفات المفيدة، والمختصرات الحسنة، والمصنفات السديدة، منها «تاريخ الإسلام» و«سير أعلام النبلاء» و«ميزان الاعتدال في نقد الرجال» وغيرها كثير. توفي رحمه الله سنة (٧٤٨) هـ ودفن بالباب الصغير بدمشق .

والحافظ أبو الفتح ابن سيد الناس اليعمري المصري، قرأ على الشيخ الإمام حامل راية العلوم ومدرك غاية المفهوم تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني بالقاهرة، عندما قدم عليهم، وقد توفي رحمه الله بالقاهرة سنة (٧٣٤) هـ .

والحافظ علم الدين القاسم بن محمد البرزالي، أحد محدثي الشام الكبار، المتوفى بـ «خليص» بين الحرمين ، محرماً في طريقه الى الحج سنة (٧٣٩) هـ .

والحافظ أبو الحجاج يوسف بن الزكي، استاذ أئمة الجرح والتعديل، شيخ المحدثين، صاحب كتاب« تهذيب الكمال في أسماء الرجال» توفي رحمه الله سنة (٧٤٢) هـ ودفن بمقبرة الصوفية جوار قبر شيخ الاسلام ابن تيمية .

أقوال العلماء فيه :

قال كمال الدين ابن الزملكاني المتوفى سنة (٧٢٧) هـ : كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله، وكان الفقهاء في سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك . وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة، والترتيب والتقسيم والتبيين .

وقال الحافظ المزي المتوفي سنة (٧٤٢) هـ : ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه .

وقال الحافظ أبو الفتح ابن سيد الناس اليعمري المصري المتوفى سنة (٦٧١) هـ : ألفيت شيخ الإسلام ابن تيمية ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً ، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته ، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته ، أو حاضر بالنحل والملل لم ير أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من درايته . برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه، كان يتكلم في التفسير، فيحضر مجلسه الجم الغفير ، ويروون من بحر علمه العذب النمير، ويرتعون من ربيع فضله في روضة وغدير .

وقال الحافظ علم الدين القاسم بن محمد البرزالي المتوفى سنة (٧٣٨) هـ : هو الإمام المجمع على فضله ونبله ودينه ، قرأ الفقه وبرع فيه ، والعربية والأصول، ومهر

في علمي التفسير والحديث ، وكان إماماً لا يلحق غباره في كل شيء ، وبلغ رتبة الاجتهاد ، واجتمعت فيه شروط المجتهدين، وكان إذا ذكر التفسير بُهت الناس من كثرة محفوظه ، وحسن ايراده ، وإعطائه كل قول ما يستحقه من الترجيح والتضعيف والإبطال، هذا مع انقطاعه إلى الزهد والعبادة والاشتغال بالله تعالى، والتجرد من أسباب الدنيا، ودعاء الخلق إلى الله تعالى .

وقال الحافظ الذهبي المتوفى سنة (٧٤٨) هـ : كان شيخ الإسلام آية في الذكاء وسرعة الإدراك، رأساً في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف، بحراً في النقليات، هو في زمانه فريد عصره علماً وزهداً وشجاعة وسخاءً ، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، وكثرة تصانيف ، وله باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، وقل أن يتكلم في مسألة إلّا ويذكر فيها مذاهب الأربعة ، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة، وصنف فيها واحتج بالكتاب والسنة ١٠ هـ .

وكان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين، وشجىً في حلوق أهل الأهواء المبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين، وكان بحراً لا تكدِّره الدلاء، وحَبْراً يقتدي به الأخيار الألبَّاء، طنَّت بذكره الأمصار، وضَنَّتْ بمثله الأعصار .

وكان إماماً من أئمة المسلمين، ومجدداً في عصره هٰذا الدين، أمثال العز بن عبد السلام المتوفى سنة (٦٦٠)هـ والإمام النووي المتوفى سنة (٦٧٦) هـ .وكانت لهم مهابة ومواقف مشهودة رحمهم الله تعالى .

عقيدته ومذهبه :

هي عقيدة السلف الصالح التي تلقوها عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه وعن التابعين لهم بإحسان، وهي العقيدة السليمة والطريقة المستقيمة، التي ينبغي على كل مسلم أن يسلك سبيلها ، وأن يسير على منهاجها، وهي أسلم وأحكم بلا شك ولا ريب، وهي العقيدة، التي كان عليها إمام مذهبه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، ومذهبه في صفات الله عز وجل الإيمان بما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه،

وبما وصفه به رسوله، وإجراؤها على ظاهرها اللائق بجلال الله تعالى من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فمتى ورد النص في الكتاب والسنة الصحيحة باثبات صفة أو نفيها، فلا يجوز لأحد العدول عنه إلى قياس أو رأي . والكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذي فيه حذوه ، ويتبع مثاله، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود، لا إثبات تكييف ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف .

وكان رحمه الله تعالى يرى بطلان التحيل على الأحكام الثابتة شرعاً إلى أحكام أخر بفعل صحيح في الظاهر لغو في الباطن ، كما هو مذهب جمهور الأئمة. وقد ردَّ على حجج من جوَّزها ، واستند في ذلك إلى حجج من المنقول عن الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والأئمة .

دعوته :

كانت دعوته إلى الأخذ بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ الصحيحة، والاعتصام بهما، وفهمهما على النحو الذي فهمه السلف الصالح، وطرح ما يخالفهما، وتجديد ما درس من معالم الدين الصحيح، وتنقيته مما ابتدعه الناس من مناهج زائفة من تلقاء أنفسهم خلال القرون السالفة، قرون الانحطاط والجمود والتقليد الأعمى، وتحذير المسلمين مما تسرب إلى الفكر الاسلامي من خرافات التصوف، ومنطق اليونان، وزهد الهند .

اختياراته الفقهية :

إن الشيخ رحمه الله تعالى بعد رجوعه من مصر إلى دمشق واستقراره بها لم يزل ملازماً للاشتغال ونشر العلم، وتصنيف الكتب، وإفتاء الناس بالكلام والكتابة ، ونفع الخلق والإحسان إليهم، والاجتهاد في الأحكام الشرعية .

ومن اختياراته التي خالف فيها المذاهب الأربعة،أو خالف المشهور من أقوالهم:

١ ـ القول بقصر الصلاة في كل ما يسمى سفراً ، طويلاً كان أو قصيراً ، كما

هو مذهب الظاهرية ، وقول بعض الصحابة .

٢ ـ القول بأن من أكل في شهر رمضان معتقداً أنه ليل ، فبان نهاراً ، لا قضاء عليه ، كما ورد عن عمر رضي الله عنه ، وإليه ذهب بعض التابعين ، وبعض الفقهاء بعدهم .

٣ ـ القول بأن تارك الصلاة عمداً لا قضاء عليه ، ولا يشرع له القضاء ، بل عليه الإكثار من النوافل رجاءَ غفران الله تعالى له ، كما هو مذهب ابن حزم الأندلسي من أهل الظاهر .

٤ ـ ومن أقواله المعروفة المشهورة التي جرى بسبب الإفتاء بها محن وقلاقل قوله بالتكفير في الحلف بالطلاق المعلَّق على شرط إذا كان لا يقصد بذلك إلا الحض أو المنع . وقوله : إن الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة ، كما كان عليه العمل في زمن رسول الله ﷺ وخلافة أبي بكر وصدر من خلافة عمر رضي الله عنهما .

وله في ذلك مصنفات كثيرة ، وله اختيارات غيرها .

شجاعته وإقدامه :

أما شجاعته فبها تضرب الأمثال ، وببعضها يتشبه أكابر الرجال ، وكان الأمراء يتعجبون من إقدامه وجرأته على المغول ، وما فعله الشيخ في توبة غازان ملك التتار من جميع أنواع الجهاد ، وسائر أنواع الخير ، وإنفاق الأموال ، وإطعام الطعام ، ودفن الموتى ، وغير ذلك ، معروف ومشهور .

وفي سنة (٧٠٢) هـ كانت وقعة «شقحب» قرب الكسوة من جنوب دمشق التي خاضها بنفسه ، وشجَّع المسلمين فيها ، وقاتل هو وجماعة من أصحابه ، وانتهت بنصر الله المسلمين نصراً مؤزَّراً . وقتل فيها من التتار خلق كثير ، لا يعلم عددهم إلا الله تعالى .

مصنفاته :

له رحمه الله تعالى نحو (٥٠٠) مصنف ، ما بين كبير وصغير ، منها «الفرقان بين

أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» و«الفرقان بين الحق والباطل» و«اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» و«التوسل والوسيلة» و«تفسير سورة النور» و«السياسة الشرعية» و«الكلم الطيب» و«تفسير سورة الاخلاص» و«جواب أهل العلم والإيمان» و«شرح حديث أبي ذر» و«الحسبة في الاسلام» و«العبودية» و«الواسطة بين الحق والخلق»(*) و«رفع الملام عن الأئمة الأعلام» و«الوصية الصغرى» و«الوصية الكبرى» و«الفتاوى» و«كتاب الإيمان» و«شرح حديث النزول» و«الصارم المسلول على شاتم الرسول» و«الرسالة التدمرية» و«العقيدة الواسطية» و«شرح حديث إنما الأعمال بالنيات» و«منهاج السنة النبوية» و«كتاب الاستقامة» و« الرد على المنطقيين» وغيرها .

وله وصايا ورسائل كثيرة واجازات .

هذا وقد طبع كتاب« مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية في الرياض بـ (٣٧) مجلداً جمعوا فيه فتاوى الشيخ وما استطاعوا من مؤلفاته التي كانت مفقودة، وقد استخرجوا اكثرها من كتاب «الكواكب الدراري في ترتيب مسند الإمام أحمد على أبواب البخاري» لابن عروة الحنبلي رحمه الله تعالى المتوفى سنة (٨٣٧).

لقد حصلت له محن كثيرة في بلاد الشام ومصر، لأنه رحمه الله تعالى كان شديد الإنكار على المخالفات، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، وهذه الأسباب هي التي جلبت له خصومات كثيرة من معاصريه، فجرى بينه وبينهم حملات حربية، ووقائع شامية ومصرية، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة، فينجيه الله منها، على أن خصومه لم يتركوه هادئاً، واستعدوا عليه ذوي السلطان متخذين عقيدته والطعن فيها لذلك سبباً يتذرَّعون به للنيل منه .

ففي سنة (٧٠٥) هـ امتحن بالسؤال عن معتقده بأمر السلطان، فجمع نائبه القضاة والعلماء بالقصر، وأحضر الشيخ وسأله عن ذلك، فبعث الشيخ من أحضر من

(*) وقد خرجت أحاديث هذه الكتب وعلقت عليها. وهي من منشورات مكتبة دار البيان بدمشق، وأرجو الله عز وجل أن يوفقني لتخريج باقيها .

داره «العقيدة الواسطية» فقرؤوها في ثلاثة مجالس، وحاققوه وبحثوا معه، ووقع الاتفاق بعد ذلك، على أن هذه عقيدة سنية سلفية.

وله من الطرف الآخر محبون من العلماء والصلحاء، ومن الجند والأمراء، ومن التجار الكبار، وسائر العامة تحبه، لأنه كان منتصباً لنفعهم ليلاً ونهاراً بلسانه وقلمه.

ثم قامت طائفة - من الذين كانوا يموِّهون على الناس بما يزعمون من كرامات، وأنهم يدخلون النار ولا تمسهم بأذى وطلبت هذه الطائفة من نائب السلطنة بحضرة الأمراء أن يكف عنهم وأن يتركهم وحالهم، فقال الشيخ رحمه الله تعالى: لا بد لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب والسنة قولاً وفعلاً، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه، ومن أراد أن يدخل النار منهم فليدخل أولاً الحمام ويغسل جسده جيداً، ثم يدخل النار بعد ذلك إن كان صادقاً، فابتدر شيخ منهم وقال: نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتار، وليست تنفق عند الشرع، فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة، وكثر الإنكار عليهم من كل أحد.

ثم ورد كتاب إلى دمشق من السلطان بحمل ابن تيمية إلى القاهرة للكشف عما كان منه. فلما قرر السفر إلى مصر ازدحم الناس لوداعه ورؤيته، ولما وصل إلى القاهرة، وفي ثاني يوم بعد صلاة الجمعة، جمع القضاة وأكابر الدولة بالقلعة، وأراد الشيخ أن يتكلم، فلم يمكَّن من البحث والكلام على عادته، وحبس في برج أياماً، ثم نقل إلى الحبس المعروف بـ «الجب» هو وأخواه: شرف الدين وزين الدين.

وفي سنة سبع وسبعمائة أخرجه من السجن الأمير حسام الدين مهنا، واجتمع به العلماء عدة مرات، وبحثوا معه، وانفض المجلس على خير، ثم إنه اختلف مع بعض المبتدعة، فطلبوا نقله إلى الاسكندرية، وظنوا أن قلوب أهلها عن محبته عريَّة، وأرادوا أن يبعد عنهم خبره، أو لعلهم يقتلونه فينقطع أثره، فأرسل به إلى ثغر الاسكندرية، وسجن فيه إلى أن دخل السلطان الناصر مصر، فأخرج الشيخ من سجنه، واجتمع بالسلطان، وأكرمه - وكان سجنه في مدة ملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير - فأراد السلطان الناصر أن ينتقم من الذين شنعوا على ابن تيمية،

فأخذ الشيخ ابن تيمية يمدحهم ويثني عليهم، ويشكرهم ويقول للسلطان: لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك ، وقال: أما أنا فهم في حِلٍّ من حقي وجهتي، وسكن ما عند السلطان من الغضب، ولقد قال القاضي زين الدين بن مخلوف قاضي المالكية: ما رأينا مثل ابن تيمية، لم نترك ممكناً في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا .

ثم إن الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى بعد اجتماعه بالسلطان الملك الناصر نـزل إلى القاهرة، وعاد الى بث العلم ونشره ، والخلق يستمعون منه ويقرؤ ون ويترددون عليه، ويعتذرون إليه ، وهو يقول لهم : قد جعلت الكل في حِلٍّ مما جرى .

ثم في مصر قام جماعة فتعصبوا على الشيخ ، وتفردوا به، وضربوه ، وطلب منه الجند أن يدلهم عليهم ليعاقبوهم، فجعلهم في حل وسامحهم . وآذاه غيرهم ، وأساؤ وا معه الأدب ، وهو في كل ذلك يقول: لا أريد أن أنتصر لنفسي، وإنما أنتصر لشرع الله عز وجل .

ثم إنه توجه بعد ذلك إلى الشام صحبة الجيش المصري قاصداً الغُزاة، فلما وصل إلى عسقلان توجه إلى بيت المقدس ومنه إلى دمشق ، ووصل إلى دمشق سنة (٧١٢) هـ ، ومعه اخواه وجماعة من أصحابه ، وخرج خلق كثير لتلقيه، وسرّوا سروراً عظيماً بمقدمه وسلامته وعافيته ، وكان مجموع غيبته عن دمشق سبع سنين وسبع جمع ، وقد توفي في أثناء غيبته عن دمشق غير واحد من كبار أصحابه وساداتهم .

ثم إن الشيخ رحمه الله تعالى بعد وصوله من مصر الى دمشق واستقراره بها لم يزل ملازماً للاشتغال ونشر العلم وتصنيف الكتب وإفتاء الناس بالكلام والكتابة ونفع الخلق والإحسان إليهم والاجتهاد في الأحكام الشرعية فعاوده في الإفتاء بمسألة الطلاق وعاتبوه وحبسوه في قلعة دمشق ، وبقي خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً ، ثم صدر مرسوم السلطان بإخراجه، فأخرج سنة (٧٢١) هـ ، ثم لم يزل يعلم الناس ويفتيهم إلى أن تكلم في مسألة شد الرحال وزيارة قبور الصالحين، وحرَّفوا عليه ونقلوا عنه ما لم يقل، واجتمعوا عليه وقرروا أن يردُّوه مرة أخرى إلى القلعة فحبسوه بها، وأوذي

جماعة من أصحابه، واختفى آخرون، وعزِّز جماعة، ونودي عليهم، ثم أطلقوا سوى تلميذه الملازم له ابن قيم الجوزية، فإنه حبس بالقلعة وسكنت القضية .

ثم انهم حركوا على الشيخ بأنه يفتي بعدم شد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، وكثر الكلام وعظمت الفتنة، وطلب القضاة بها، فاجتمعوا وتكلموا، وأشار بعضهم بحبس الشيخ، فسجن سنة ست وعشرين وسبعمائة .

ثم إن الشيخ رحمه الله تعالى بقي مقيماً بالقلعة سنتين وثلاثة أشهر وأياماً إلى أن توفي رحمه الله تعالى. وفي هذه المدة كان يكتب العلم ويصنف، ويرسل الرسائل إلى أصحابه، ويذكر ما فتح الله عليه من العلوم العظيمة والأحوال الجسيمة، وكان يقول: فتح الله عليَّ في هذا الحصن من معاني القرآن ومن أصول العلم أشياء، وندمت على تضييع أوقاتي في غير معاني القرآن، ثم منع من الكتابة، ولم يترك عنده دواة ولا قلم ولا ورق ، فأقبل على التلاوة والتهجد والمناجاة وذكر الله عز وجل .

وكان يقول: أنا جنتي وبستاني في صدري، أينما رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة .

وكان يقول في الحبس وهو ساجد: اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ويقول: المحبوس من حبس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسره هواه .

وكان يقرأ في كل يوم ثلاثة أجزاء من القرآن، وفي كل عشرة أيام يقرأ ختمة، وختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ثمانين أو أحداً وثمانين ختمة .

ثم مرض أياماً في القلعة، وكانت مدة مرضه بضعاً وعشرين يوماً، وأكثر الناس ما علموا بمرضه ، فلم يفجأ الخلق إلا نعيه ، فاشتد التأسف عليه وكثر البكاء والحزن .

وكان آخر ما قرأ من القرآن: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر : ٥٤ ـ ٥٥] ، وكان ذلك ليلة الاثنين في العشرين من ذي القعدة سنة (٧٢٨) هـ رحمه الله تعالى .

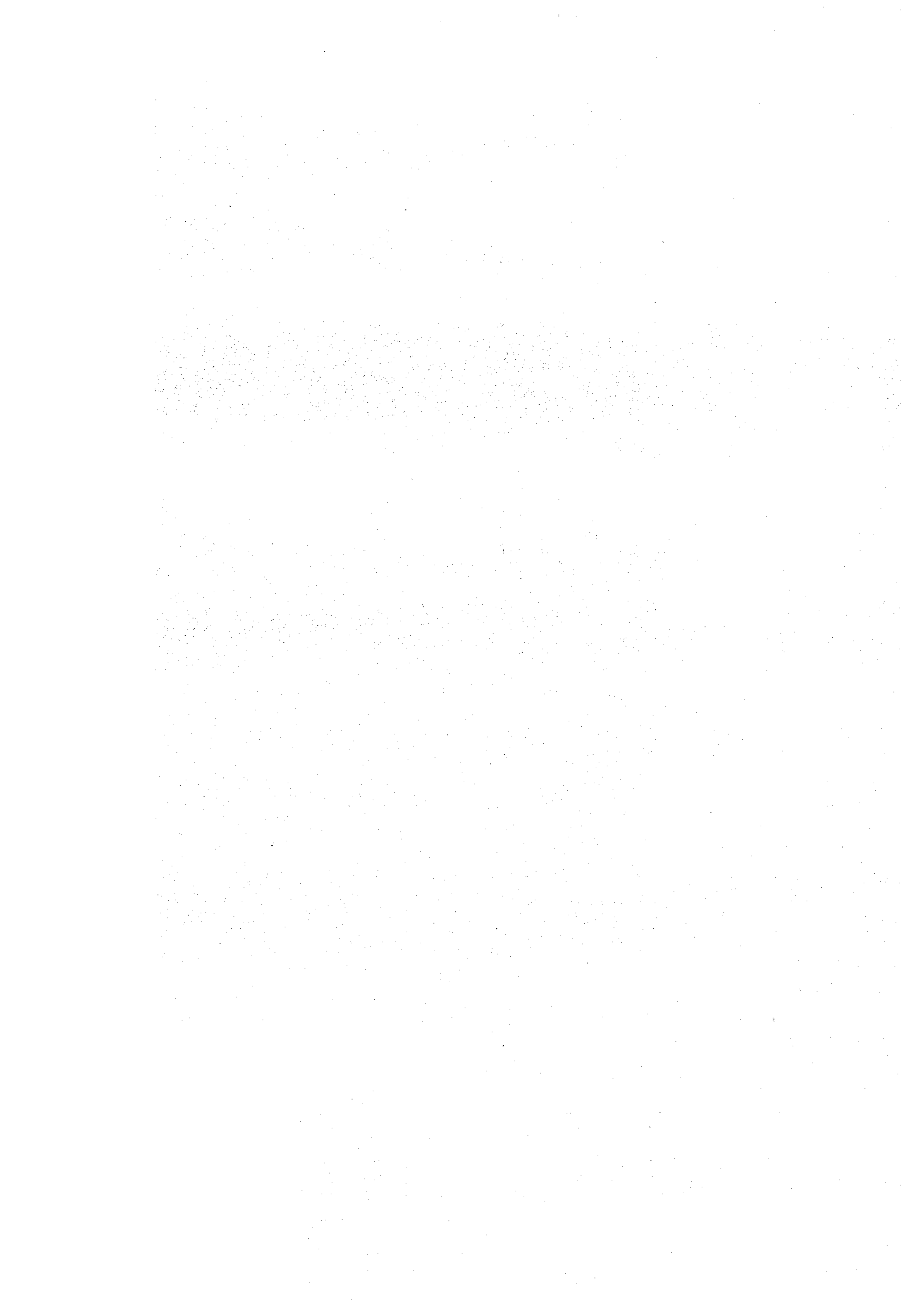
ودخل أقاربـه وأصحابـه القلعة، وازدحم الخلق عـلى باب القلعـة والطرقـات، وامتـلأ جامـع دمشق، وغسلت جنـازتـه، ثم أخـرج وقـد اجتمـع النـاس في القلعـة والطريق إلى جامع دمشق، وامتلأ الجـامع وصحنـه والكلاسـة وباب البـريد ، وبقيـة أبواب المسجد، وحضرت الجنازة، وصلي عليه بالقلعة، ثم صلي عليـه بجامـع دمشق عقب صلاة الظهر، وحمل من باب البريد إلى مقبرة الصـوفية، ودفن إلى جـانب أخيه شرف الدين، وكان دفنه وقت صلاة العصر أو قبلها بيسير، وأغلق النـاس حوانيتهم، ولم يتخلف عن الحضور إلا القليل من الناس، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز.

رحم الله تعـالى ابن تيمية رحمـة واسعة ، وأجـزل ثوابـه ، جزاء مـا قدَّم للدين والعلم والأمة من خير، وجعله الله تعالى مع النبيين والصديقـين والشهداء والصـالحين ، وحـسن أولئك رفيقاً .

خادم السنَّة النبوية

عبد القادر الأرناؤوط


الفرقان
بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هاديَ له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله . أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلِّه وكفى بالله شهيداً . أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإِذْنِه وسِراجاً مُنيراً ، فهدى به من الضَّلالة ، وبصَّر به من العمى ، وأرشد به من الغي ، وفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، وفرق به بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغيِ ، والمؤمنين والكفار ، والسعداءِ أهل الجنة ، والأشقياءِ أهل النار ، وبين أولياءِ الله وأعداءِ الله . فمن شهد له محمد ﷺ بأنه من أولياءِ الله فهو من أولياءِ الرحمن، ومن شهد له بأنه من أعداءِ الله فهو من أعداءِ الله وأولياءِ الشياطين .

وقد بيَّن سبحانه وتعالى في كتابه وسنة رسوله ﷺ أن لله أولياءَ من الناس ، وللشيطان أولياء ، ففرَّق بين أولياءِ الرحمن وأولياءِ الشيطان . فقال تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَى في ٱلْحَياةِ الدُّنْيا وفي ٱلآخِرةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذٰلِكَ هُو ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيم ﴾ [يونس : ٦٢ - ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ اللهُ وليُّ الَّذينَ آمنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ وَٱلَّذينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهمُ الطَّاغوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلماتِ أُولٰئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدُون ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ يا أَيُّها ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَالنَّصارَى أَوْلِيَآءَ بَعضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَىٰ الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَهٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ * يَا أَيُّها ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُم عَنْ دِينِهِ فَسوْفَ يَأْتي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَىٰ ٱلْكَافِرينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخافُونَ لَوْمَةَ

لائِمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشآءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِين يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ ٱلْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥١ ـ ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ هُنالِكَ ٱلْوَلايَةُ لِلهِ الحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾ [الكهف : ٤٤] .

وذكر أَوْلياءَ الشيطان فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرآنَ فَٱسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم * إِنَّهُ لَيسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتوكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَىٰ ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ٩٨ ـ ١٠٠] .

وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء : ٧٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف : ٥٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً ﴾ [النساء : ١١٩] .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٣ - ١٧٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آبَاءَنا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٧ - ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيآئِهِم لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

وقال الخليل عليه السلام : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمْسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ [مريم : ٤٥]

وقال تَعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكم أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالْمَوَدَّةِ ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الممتحنة : ١ - ٥] .

* * *

فصل

[في صفات أولياء الله تعالى]

وإذا عرف أَن الناس فيهم أَولياءُ الرحمن وأولياءُ الشيطان ، فيجب أَن يفرّق بين هؤلاءِ وهؤلاءِ ، كما فرق الله ورسوله بينهما ، فأَولياءُ الله هم المؤمنون المتقون ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٦٢ - ٦٣] .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يقول الله تعالى : «من عادى لي ولياً فقد بارزني[1] بالمحاربة - أَو فقد آذنته بالحرب - وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أَداءِ ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه ، فإِذا أَحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها - وفي رواية فبي يسمع وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي - « ولئن سأَلني لأُعطينه ، ولئن استعاذني لأُعيذنه ، وما ترددت عن شيءٍ أنا

---

(١) لفظ « المبارزة » لم يرد في «صحيح البخاري » وإنما هو من رواية الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه .

فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءَته ، ولا بد له منه »[1] .

وهذا أَصح حديث يروى في الأَولياءِ ، فبين النبي ﷺ أَنه من عادى ولياً لله فقد بارز الله في المحاربة .

وفي حديث آخر : «وإني لأَثأر لأَوليائي كما يثأر الليث الحرِب » أَي : آخذ ثأْرهم ممن عاداهم كما يأْخذ الليث الحرب ثأْره ، وهذا لأَن أَولياءَ الله هم الذين آمنوا به ووالوه ، فأَحبوا ما يحب ، وأَبغضوا ما يبغض ، ورضوا بما يرضى ، وسخطوا بما يسخط ، وأَمروا بما يأْمر ، ونهوا عما نهى ، وأَعطوا لمن يحب أَن يعطى ، ومنعوا من يحب أَن يمنع ، كما في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أَنه قال : « أَوثق عرى الإيمان : الحب في الله والبغض في الله »[2] .

وفي حديث آخر رواه أَبو داود وقال : « من أَحب لله ، وأَبغض لله ، وأَعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان »[3] .

---

(١) رواه البخاري ١١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٥ في الرقاق : باب التواضع وانظر « الفتح » ، وما قاله الحافظ ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » حول هذا الحديث ص ٣١٣

(٢) رواه أحمد في « المسند » ٤ /٢٨٦ عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، والطبراني في « الكبير » عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي « الصغير » عن ابن مسعود رضي الله عنه وهو حديث حسن .

(٣) أبو داود رقم (٤٦٨١) في السنة : باب الدليل على زيادة الإيمان ، وأخرجه أحمد في =

والـولاية : ضـد العداوة ، وأصـل الـولايـة : المحبـة والقرب ، وأصل العداوة : البغض والبعد . وقد قيل : إن الولي سمي ولياً من موالاته للطاعات ، أي متابعته لها ، والأول أصح .

والولي : القريب ، يقال : هذا يلي هذا ، أي يقرب منه . ومنه قوله ﷺ : « ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر »[1] أي لأقرب رجل إلى الميت . ووكده بلفظ« الذكر» ليبين أنه حكم يختص بالذكور ، ولا يشترك فيه الذكور والإناث ، كما قال في الزكاة : « فابن لبون ذكر »[2] .

= « المسند» ٣ /٤٣٨ و ٤٤٠ ، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، وهو حديث حسن ، فإن رجال إسناده ثقات ما خلا القاسم بن عبد الرحمن الشامي الراوي عن أبي أمامة ، فقد تكلم فيه غير واحد ، لكن ذكروا أن حديث الثقات عنه مستقيمة ، وهذا منها .

(١) رواه البخاري ١٢ /٨ في الفرائض : باب ميراث الولد من أبيه وأمه ، وباب ميراث ابن الابن إذا لم يكن ابن ، ومسلم رقم (١٦١٥) في الفرائض : باب ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر ، والترمذي رقم (٢٠٩٩) في الفرائض : باب ميراث العصبة ، وأبو داود رقم (٢٨٩٨) في الفرائض : باب في ميراث العصبة ، وابن ماجه رقم (٢٧٤٠) في الفرائض : باب ميراث العصبة ، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) هذا اللفظ رواه أبو داود رقم (١٥٦٧) في الزكاة : باب زكاة السائمة عن أبي بكر رضي الله عنه ونصه « هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله ﷺ على المسلمين التي أمر الله عز وجل بها نبيه ﷺ ، فمن سُئلها من دون المسلمين على وجهها فليعطها ، ومن سُئل =

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ، ويبغضه ويسخطه ، ويأمر به وينهى عنه ، كان المعادي لوليه معادياً له، كما قال تعالى: ﴿لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالْمَوَدَّة﴾ [الممتحنة : ١] فمن عادى أولياءَ الله فقد عاداه ، ومن عاداه فقد حاربه ، فلهذا قال : « ومن عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة » .

وأفضل أولياءِ الله هم أنبياؤُه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضل المرسلين أُولو العزم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ . قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيموا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ ومُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابن مَرْيَم وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [الأحزاب : ٧ - ٨] .

فوقها فلا يُعطه : فيما دون خمس وعشرين من الإبل والغنم ، في كل خمس ذَوْد شاة ، فإذا بلغت خمساً وعشرين ففيها بنت مخاض إلى أن تبلغ خمساً وثلاثين ، فإن لم يكن فيها بنت مخاض فابن لبون ذكر » .

ورواه البخاري ٣ /٢٥١ بمعناه والنسائي ٥ /١٨ ، ٢٣ في الزكاة : باب زكاة الإبل ، وابن ماجه رقم (١٨٠٠) في الزكاة : باب إذا أخذ المصدق سناً دون سن أو فوق سن من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

وأفضل أُولي العزم : محمد ﷺ خاتم النبيِّين وإمام المتقين ، وسيِّد ولدِ آدم ، وإمام الأنبياءِ إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأوّلون والآخرون ، وصاحب لواءِ الحمد ، وصاحب الحوض المورود ، وشفيع الخلائق يوم القيامة ، وصاحب الوسيلة والفضيلة ، الذي بعثه الله بأفضل كتبه ، وشرع له أفضل شرائع دينه ، وجعل أُمته خير أُمّة أُخْرِجت للناس ، وجمع له ولأُمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم ، وهم آخر الأُمم خلقاً ، وأوّل الأُمم بعْثاً ، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا ، وأُوتيناه من بعدهم ، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه ـ يعني يوم الجمعة ـ فهدانا الله له : الناس لنا تبع فيه ، غداً لليهود ، وبعد غَدٍ للنصارى »(١) .

وقال ﷺ : « أنا أَوّل من تنشق عنه الأَرض »(٢) .

---

(١) رواه البخاري ٢ /٢٩٢ ـ ٢٩٤ في الجمعة : باب فرض الجمعة ، وباب هل على من لم يشهد الجمعة غسل ، وفي الأنبياء : باب ما ذكر عن بني اسرائيل ، ومسلم رقم (٨٥٥) في الجمعة : باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ، والنسائي ٣ /٨٥ ـ ٨٧ في الجمعة : باب ايجاب الجمعة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي رقم (٣٦٩٣) في المناقب : باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ورواه أبو داود رقم (٤٦٧٣) في السنة =

وقال ﷺ : « آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول الخازن : من أنت؟ فأقول : أنا محمد . فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك »[1] .

وفضائله ﷺ وفضائل أمته كثيرة ، ومن حين بعثه الله جعله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه : فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به وبما جاءَ به ، واتبعه باطناً وظاهراً ، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه ، فليس من أولياءِ الله ، بل من خالفه كان من أعداءِ الله وأولياءِ الشيطان .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[آل عمران : ٣١] . قال الحسن البصري رحمه الله : ادعى قوم أنهم يحبون الله ، فأنزل الله هذه الآية محنة لهم وقد بين الله فيها ، أن مَنِ اتَّبع الرسول فإن الله يحبه ، ومَن ادَّعى محبة الله ولم يتبع الرسول ﷺ ، فليس من أولياءِ الله : وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم ، أو في غيرهم ، أنهم من أولياءِ الله ، ولا يكونون من أولياءِ الله ، فاليهود

= باب التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من حديث أبي هريرة ومسلم رقم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة بلفظ « وأول من ينشق عنه القبر » فهو حديث صحيح .

(١) رواه مسلم رقم (١٩٧) في الإيمان : باب قول النبي ﷺ : أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأحمد في « المسند » ٣/١٣٦ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

والنصارى يدَّعون أنهم أولياءُ لله وأنه لا يدخل الجنة إلا من كان منهم ، بل يدَّعون أنهم أبناؤُه وأحباؤُه . قال تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ الآية [المائدة : ١٨] . وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَو نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمانيُّهم ﴾ . إلى قوله : ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ [البقرة : ١١١ - ١١٣] .

وكان مشركو العرب يدَّعون أنهم أهل الله ، لسكناهم مكَّة ، ومجاورتهم البيت ، وكانوا يستكبرون به على غيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَت آيَاتي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٦ - ٦٧] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَو يَقْتُلُوكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُمْ يَصُدون عَنِ المَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٠ - ٣٤] فبيَّن سبحانه أن المشركين ليسوا أولياءَه ولا أولياءَ بيته ، إنَّما أَوْلياؤُه المتقون .

وثبت في « الصحيحين » عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول جهاراً من غير سر : « إن آل فلان ليسوا لي بأولياءَ - يعني طائفة من أقاربه - إنما وليي الله وصالح المؤمنين »[1] وهذا موافق لقوله تعالى :

---

(١) رواه البخاري ١٠ /٣٥١ - ٣٥٤ في الأدب : باب تبل الرحم ببلالها ، ومسلم رقم =

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية . [التحريم : ٤] وصالح المؤمنين : هو من كان صالحاً من المؤمِنِين. وهم المؤمنون المتقون أولياءُ الله . ودخل في ذلك أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وسائر أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، وكلهم في الجنة ، كما ثبت في « الصحيح » عن النبي ﷺ أنه قال : «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة »(١) . ومثل هذا الحديث الآخر : «إن أوليائي المتقون أيّاً كانوا وحيث كانوا »(٢) .

كما أن من الكفَّار من يدَّعي أنه ولي الله ، وليس ولياً لله ، بل عدوٌّ له . فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الاسلام ، يقرون في الظاهر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأنه مرسل إلى جميع الإنس ، بل إلى الثقلين : الإنس والجن ، ويعتقدون في الباطن ما يناقض ذلك ؛ مثل

= (٢١٥) في الإيمان :باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم وأحمد٤/ ٢٠٣ .

(١) رواه مسلم رقم (٢٤٩٦) في فضائل الصحابة : باب فضائل أصحاب الشجرة. وأبو داود رقم (٤٦٥٣) في السنة : باب في الخلفاء ، والترمذي رقم (٣٨٥٩) في المناقب : باب ما جاء في فضل من بايع تحت الشجرة . من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن أم مبشر الأنصارية رضي الله عنها .

(٢) رواه أحمد في « المسند » ٥ / ٢٣٥ من حديث معاذ رضي الله عنه ، بلفظ « إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا » واسناده صحيح .

أن لا يقروا في الباطن بأنه رسول الله ، وإنما كان ملكاً مطاعاً ، ساس الناس برأيه ، من جنس غيره من الملوك ، أو يقولون : إنه رسول الله إلى الأميين دون أهل الكتاب ، كما يقوله كثير من اليهود والنصارى ، أو أنه مرسل إلى عامة الخلق ، وأن لله أولياءَ خاصة ، لم يرسل إليهم ، ولا يحتاجون إليه ، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته، كما كان الخضر مع موسى ، أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه وينتفعون به من غير واسطة ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها . وأما الحقائق الباطنة فلم يرسل بها ، أو لم يكن يعرفها ، أو هم أعرف بها منه ، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته .

وقد يقول بعض هؤلاءِ : إن أهل الصفَّة كانوا مستغنين عنه ، ولم يرسل إليهم ، ومنهم من يقول : إن الله أوحى إلى أهل الصفَّة في الباطن ما أوحى إليه ليلة المعراج ، فصار أهل الصفَّة بمنزلته ، وهؤلاءِ من فرط جهلهم ، لا يعلمون أن الإسراءَ كان بمكة ، كما قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَى ٱلَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء : ١] . وأنَّ الصفَّة لم تكن إلا بالمدينة ، وكانت صفَّة في شمالي مسجده ﷺ ينزل بها الغرباءُ الذين ليس لهم أهل وأصحاب ينزلون عندهم ، فإن

المؤمنين كانوا يهاجرون إلى النبي ﷺ إلى المدينة ، فمن أمكنه أن ينزل في مكان نزل به ؛ ومن تَعَذَّر ذلك عليه نزل في المسجد ، إلى أن يتيسر له مكان ينتقل إليه .

ولم يكن أهل الصفَّة ناساً بأعيانهم يلازمون الصفَّة ، بل كانوا يقلُّون تارة ويكثرون أُخرى ، ويقيم الرجل بها زماناً ، ثم ينتقل منها ، والذين ينزلون بها هم من جنس سائر المسلمين ، ليس لهم مزية في علم ولا دين ، بل فيهم من ارتد عن الاسلام وقتله النبي ﷺ ، كالعرنيين الذين اجتوَوا المدينة ، أي : استوخموها ، فأمرلهم النبي ﷺ بلقاح - أي إبل لها لبن - وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها ، فلما صحوا ؛ قتلوا الراعي ، واستاقوا الذود ، فأرسل النبي ﷺ في طلبهم ، فأتى بهم ، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم ، وتركهم في الحرَّة يستسقون فلا يسقون . وحديثهم في « الصحيحين »[1] من حديث أنس ؛ وفيه أنهم

---

(١) رواه البخاري ١٢ / ٩٨ في المحاربين في فاتحته ، وفي كتب أخرى ، ومسلم رقم (١٦٧١) في القسامة : باب حكم المحاربين والمرتدين ، والترمذي رقم(٧٢) في الطهارة : باب ما جاء في بول ما يؤكل لحمه ورقم (١٨٤٦) ، وأبو داود رقم (٤٣٦٤) في الحدود : باب ما جاء في المحاربة ، ورقم (٤٣٦٥) و (٤٣٦٦) و (٤٣٦٧) و (٤٣٦٨) و (٤٣٧١) ، والنسائي ٧ /٩٣ - ٩٨ في تحريم الدم : باب تأويل قول الله عز وجل ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ﴾ ، وابن ماجه رقم (٢٥٧٨) في الحدود : باب من حارب وسعى في الأرض فساداً ، وأحمد في « المسند » ٣ /١٠٧ و١٦٣ و ١٧٠ و ١٧٧ و ١٨٦ و ١٩٨ و ٢٠٥ و ٢٣٣ و ٢٨٧ و ٢٩٠ .

نزلوا الصَّفة، فكان ينزلها مثل هؤلاءِ، ونزلها من خيار المسلمين سعد بن أَبي وقاص، وهو أَفضل من نزل بالصفَّة، ثم انتقل عنها، ونزلها أَبو هريرة وغيره، وقد جمع أَبو عبد الرحمن السلمي تاريخ من نزل الصفَّة.

وأَما الأَنصار فلم يكونوا من أَهل الصفَّة، وكذلك أَكابر المهاجرين - كأَبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وأَبي عبيدة [بن الجراح] وغيرهم - لم يكونوا من أَهل الصفة.

وقد روي أَنه كان بها غلام للمغيرة بن شعبة، وأَن النبي ﷺ قال: « هذا واحد من السبعة » وهذا الحديث كذب باتفاق أَهل العلم، وإِن كان قد رواه أَبو نعيم في « الحلية » وكذا كل حديث يروى عن النبي ﷺ في عدة الأَولياءِ، والأَبدال، والنقباءِ، والنجباءِ، والأَوتاد، والأَقطاب، مثل أَربعة، أَو سبعة، أَو اثني عشر، أَو أَربعين، أَو سبعين، أَو ثلاثمائة، أَو ثلاثمائة وثلاثة عشر، أَو القطب الواحد، فليس في ذلك شيءٌ صحيح عن النبي ﷺ، ولم ينطق السلف بشيء من هذه الأَلفاظ إِلا بلفظ الأَبدال.

وروي فيهم حديث أَنهم أَربعون رجلاً؛ وأَنهم بالشام،

وهو في « المسند » من حديث علي كرم الله وجهه ، وهو حديث منقطع ليس بثابت ، ومعلوم أن علياً ومن معه من الصحابة ، كانوا أفضل من معاوية ومن معه بالشام ، فلا يكون أفضل الناس في عسكر معاوية دون عسكر علي[1].

وقد أخرجافي « الصحيحين »[2] عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : « تمرق مارقة من الدين على حين فُرقة من المسلمين يقتلهم أولى الطائفتين بالحق » وهؤلاءِ المارقون هم الخوارج الحرورية الذين مرقوا لما حصلت الفرقة بين المسلمين في خلافة علي ، فقتلهم علي ابن أبي طالب وأصحابه ، فدل هذا الحديث الصحيح على أن علي بن أبي طالب أولى بالحق من معاوية وأصحابه ، وكيف يكون الأبدال في أدنى العسكرين دون أعلاهما .

وكذلك ما يرويه بعضهم عن النبي ﷺ أنه أنشد منشد :

قد لسعت حَيَّةُ الهوى كَبدي

---

(١) حديث الأبدال له طرق وشواهد بمجموعها يدل على أن للحديث أصلاً ، وهو حسن بطرقه وشواهده ، دون تحديد بمكان أو عدد ، انظر « المقاصد الحسنة » للسخاوي ٨ ـ ١١ ، و « كتاب التوابين » لموفق الدين ابن قدامة المقدسي بتحقيقي صفحة ٢٢٥ ـ ٢٢٦

(٢) رواه مسلم رقم (١٠٦٥) في الزكاة : باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، وأحمد في « المسند » ٣ /٣٢ و ٤٨ ، وأبو داود رقم (٤٦٦٧) في السنة : باب ما يدل على ترك الكلام في الفتنة . وليس عند البخاري بهذا اللفظ . انظر « جامع الأصول » ١٠/ ٨٣ ـ ٨٧ بتحقيقي .

فـلا طـبـيـبٌ . لـهـا ولا راقـي
إلا الـحـبـيـبُ الـذي شُـغِـفْـتُ بـه
فـعـنـده رُقـيـتـي وتـريـاقـي

وأن النبي ﷺ تواجد حتى سقطت البردة عن منكبه ، فإنه كذب باتفاق أهل العلم بالحديث ، وأكذب منه ما يرويه بعضهم أنَّه مزَّق ثوبه ، وأن جبريل أخذ قطعة منه ، فعلقها على العرش ، فهذا وأمثاله مما يعرف أهل العلم والمعرفة برسول الله ﷺ أنه من أظهر الأحاديث كذباً عليه .

وكذلك ما يروونه عن عمر رضي الله عنه أنه قال : كان النبي ﷺ وأبو بكر يتحدثان ، وكنت بينهما كالزنجي ، وهو كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث .

والمقصود هنا ؛ أن فيمن يقر رسالته العامة في الظاهر ومن يعتقد في الباطن ما يناقض ذلك ، فيكون منافقاً ، وهو يدعي في نفسه وأمثاله أنهم أولياءُ الله مع كفرهم في الباطن بما جاءَ به رسول الله ﷺ ، إما عناداً ، وإما جهلاً ، كما أن كثيراً من النصارى واليهود يعتقدون أنهم أولياءُ الله . وأن محمداً رسول الله . لكـن يقولون : إنمـا أُرسل إلـى غيـر أهل الكتاب ، وإنـه لا يجب علينا اتِّباعه ، لأنه أرسل إلينا رسلاً قبله ؛ فهؤلاءِ كلهم كفار مع أنهم يعتقدون في طائفتهم أنهم أولياءُ الله ،

وإنما أولياءُ الله الذين وصفهم الله تعالى بولايته بقوله : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون ﴾ [يونس : ٦٢ - ٦٣] .

ولا بُدّ في الإيمان من أن يؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . ويؤمن بكل رسول أرسله الله ، وكل كتاب أنزله الله ، كما قال تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنهُم وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٣٦ - ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمُؤْمِنُون كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا أَنْتَ

مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِين ﴾ . [البقرة : ٢٨٥ - ٢٨٦] .

وقال في أول السورة :﴿ آلمٓ(*) ذَلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِين * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِم وَأُولَئِكَ هم المفْلِحُون ﴾ [البقرة : ١ - ٥] .

فلا بد في الإيمان من أن تؤمن أن محمداً ﷺ خاتم النبيين ، لا نبي بعده ، وأن الله أرسله إلى جميع الثقلين : الجن والإنس . فكل من لم يؤمن بما جاءَ به فليس بمؤمن ، فضلاً عن أن يكون من أولياءِ الله المتقين ، ومن آمن ببعض ما جاءَ به وكفر ببعض ، فهو كافر ليس بمؤمن . كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ باللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفرِّقُوا بيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً * أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ حَقاً وَأَعْتَدْنا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً * وَالَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [النساء : ١٥٠ - ١٥٢] .

ومن الايمان به : الايمان بأنه هو الواسطة بين الله وبين

خلقه في تبليغ أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وحلاله وحرامه . فالحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله ﷺ . فمن اعتقد أن لأحد من الأولياءِ طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ فهو كافر من أولياءِ الشيطان .

وأما خلق الله تعالى للخلق ، ورزقه إياهم ، وإجابته لدعائهم ، وهدايته لقلوبهم ، ونصرهم على أعدائهم ، وغير ذلك من جلب المنافع ودفع المضار ، فهذا لله وحده ، يفعله بما يشاءُ من الأسباب ، لا يدخل في مثل هذا وساطة الرسل .

ثم لو بلغ الرجل في الزهد والعبادة والعلم ما بلغ ، ولم يؤمن بجميع ما جاءَ به محمد ﷺ فليس بمؤمن ، ولا ولي لله تعالى ، كالأحبار والرهبان من علماءِ اليهود والنصارى وعبَّادهم . وكذلك المنتسبين إلى العلم والعبادة من المشركين ، مشركي العرب والترك والهند ، وغيرهم ممن كان من حكماءِ الهند والترك ، وله علم أو زهد وعبادة في دينه ، وليس مؤمناً بجميع ما جاءَ به محمد ، فهو كافر عدو لله ، وإن ظن طائفة أنه ولي لله ؛ كما كان حكماءُ الفرس من المجوس كفاراً مجوساً ، وكذلك حكماءُ اليونان ، مثل أرسطو وأمثاله ، كانوا مشركين يعبدون الأصنام والكواكب

وكان أرسطو قبل المسيح عليه السلام بثلاثمائة سنة ، وكان وزيراً للاسكندر بن فيلبس المقدوني ، وهو الذي تؤرخ له تواريخ الروم واليونان ، ويؤرخ به اليهود والنصارى . وليس هذا هو ذا القرنين الذي ذكره الله في كتابه ؛ كما يظن بعض الناس أن أرسطو كان وزيراً لذي القرنين لما رأوا أن ذاك اسمه الاسكندر ؛ وهذا قد يسمى بالاسكندر ، ظنوا أن هذا ذاك ، كما يظنه ابن سينا وطائفة معه .

وليس الأمر كذلك ، بل هذا الاسكندر المشرك ـ الذي قد كان أرسطو وزيره ـ متأخر عن ذاك ، ولم يبنِ هذا السدَّ ، ولا وصل إلى بلاد يأجوج ومأجوج ، وهذا الاسكندر الذي كان أرسطو من وزرائه ؛ يؤرِّخ له تاريخ الروم المعروف .

وفي أصناف المشركين ، من مشركي العرب ، ومشركي الهند ، والترك ، واليونان ، وغيرهم ، من له اجتهاد في العلم والزهد والعبادة ، ولكن ليس بمتبع للرسل ، ولا مؤمن بما جاؤوا به ، ولا يصدقهم فيما أخبروا به ، ولا يطيعهم فيما أمروا ، فهؤلاءِ ليسوا بمؤمنين ، ولا أولياءَ لله ، وهؤلاءِ تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم ، فيكاشفون الناس ببعض الأمور ، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر ، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين ، قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ

كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٣] .

وهؤلاء جميعهم ينتسبون إلى المكاشفات وخوارق العادات إذا لم يكونوا متبعين للرسل ، فلا بد أن يكذبوا وتكذبهم شياطينهم ، ولا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وفجور ، مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلوّ أو البدع في العبادة .

ولهذا تنزلت عليهم الشياطين واقترنت بهم ، فصاروا من أولياءِ الشيطان لا من أولياءِ الرحمن . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِين ﴾ [الزخرف : ٣٦] وذكر الرحمن هو الذكر الذي بعث به رسول الله ﷺ مثل القرآن ، فمن لم يؤمن بالقرآن ، ويصدق خبره ، ويعتقد وجوب أمره ، فقد أعرض عنه ، فيقيض له الشيطان فيقترن به .

قال تعالى : ﴿ وَهٰذا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ [الأنبياء : ٥٠] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرض عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمىٰ وَقَدْ كُنْتُ بصِيراً * قَالَ : كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنْسىٰ ﴾ [طه : ١٢٤ - ١٢٦] ، فدل ذلك على أن ذكره هو آياته التي أنزلها ، ولهذا لو ذكر الرجل الله سبحانه وتعالى

دائماً ليلاً ونهاراً مع غاية الزهد ، وعبده مجتهداً في عبادته ، ولم يكن متبعاً لذكره الذي أنزله ـ وهو القرآن ـ كان من أولياءِ الشيطان ، ولو طار في الهواءِ أو مشى على الماءِ ، فإن الشيطان يحمله في الهواءِ ، وهـذا مبسوط في غيـر هذا الموضع .

فصل

[في صفات المنافقين ، وأمور الجاهلية]

ومن الناس من يكون فيه إيمان ، وفيه شعبة من نفاق ، كما جاءَ في « الصحيحين » عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال : « أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن ، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإذا عاهد غدر »[1] .

(١) رواه البخاري ١ / ٨٤ في الإيمان : باب علامات المنافق ، وفي المظالم : باب إذا خاصم فجر ، وفي الجهاد : باب إثم من عاهد ثم غدر ، ومسلم رقم (٥٨) في الإيمان : باب بيان خصال المنافق ، وأبو داودرقم (٤٦٨٨) في السنة : باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، والترمذي رقم (٢٦٣٤) في الإيمان : باب ما جاء في علامة المنافق ، والنسائي ٨ / ١١٦ في الإيمان : باب علامة المنافق وأحمد في « المسند » ٢ / ٢٠٠ .

وفي « الصحيحين » أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « الإيمان بضع وستون ، أو بِضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق ، والحياءُ شعبة من الايمان »[1] فبين النبي ﷺ أن من كان فيه خصلة من هذه الخصال ففيه خصلة من النفاق حتى يدعها .

وقد ثبت في « الصحيحين » أنه قال لأبي ذرّ وهو من خيار المؤمنين: «إنكَ امرءٌ فيك جاهلية»، فقال: يا رسـول الله! أعلى كِبَر سني ؟ قال : « نعم »[2] .

وثبت في « الصحيح » عنه أنه قال : « أربع في أُمتي من أمر الجاهلية : الفخر في الأحساب ، والطعنُ في الأنساب ،

(١) رواه البخاري ١ /٤٨ ، ٤٩ في الإيمان : باب أمور الإيمان ، ومسلم رقم (٣٥) في الإيمان : باب عدد شعب الإيمان ، وأبو داود رقم (٤٦٧٦) في السنة : باب في رد الإرجاء ، والترمذي رقم (٢٦١٧) في الإيمان : باب استكمال الإيمان ، والنسائي ٨/١١٠ في الإيمـان : باب ذكـر شعب الإيمان وابن مـاجـه رقم (٥٧) في المقـدمـة وأحمد في « المسند » ٢/٣٧٩ و٤٤٥ .

(٢) رواه البخاري / في الأدب : باب ما ينهى عن السباب ، وفي الإيمان : باب المعاصي من أمر الجاهلية ، وفي العتق : باب العبيد اخوانكم ، ومسلم رقم (١٦٦١) في الإيمان : باب إطعام المملوك ،وأبو داود رقم (٥١٥٧) و (٥١٥٨) في الأدب : باب في حق المملوك ، والترمذي رقم (١٩٤٦) في البر : باب الإحسان إلى الخدم ، وأحمد في « المسند » ٥ /١٦١ ، من حديث أبي ذر ، رضي الله عنه .

والنياحة على الميت ، والاستسقاءُ بالنجوم »[1] .

وفي « الصحيحين » عن أَبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، أَنه قال : « آيـة المنافق ثـلاث : إذا حدث كـذب ، وإذا وعـد أَخلف ، وإذا أؤتمن خـان » . وفي « صحيـح مسلم » : « وإن صـام وصـلى وزعم أَنـه مسلم »[2] .

وذكر البخاري[3] عن ابن أَبي مليكة أَنه قال :أَدركت ثلاثين من أَصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقوا وَقِيلَ لَهُمْ تعالَوا قَاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ أَوِ ٱدْفعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ للإِيمَانِ ﴾ [آل عمران : ١٦٦ - ١٦٧] ، فقد جعل هؤلاءِ إلى الكفر ، أَقرب منهم للإيمان ،

---

(١) رواه مسلم رقم (٩٣٤) في الجنائز : باب التشديد في النياحة ، وأحمد في « المسند » ٥ / ٣٤٢ و ٣٤٣ و٣٤٤ من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري ١ /٨٣ في الإيمان : باب علامات المنافق وفي الشهادات : باب من أمر بانجاز الوعد ، ، ومسلم رقم (٥٩) في الإيمان : باب بيان خصال المنافق ، والترمذي رقم (٢٦٣٣) في الإيمان : باب ما جاء في علامة المنافق ، والنسائي ٨ /١١٧ في الإيمان : باب علامة المنافق .

(٣) ١ /١٠١ في الإيمان : باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر .

فعلم أنهم مخلطون ، وكفرهم أقوى ، وغيرهم يكون مخلطاً وإيمانه أقوى .

وإذا كان أولياءُ الله هم المؤمنين المتقين ، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى ، كان أكمل ولاية لله ، فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل ، بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى ، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله ، بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إيماناً وهم يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَا الذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِم وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُون ﴾ [التوبة : ١٢٤ - ١٢٥] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّما النَّسِيءُ زِيَادَةٌ في ٱلْكُفْرِ ﴾ [التوبة : ٣٧] وقال تعالى : ﴿ وٱلَّذِينَ ٱهْتَدوا زَادَهُم هُدًى وآتَاهُمْ تَقْوَاهُم ﴾ . [محمد : ١٧] . وقال تعالى في المنافقين : ﴿ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادهُمُ اللهُ مُرَضاً ﴾ [البقرة : ١٠] فبين سبحانه وتعالى : أن الشخص الواحد ، قد يكون فيه قسط من ولاية الله ، بحسب إيمانه ، وقد يكون فيه قسط من عداوة الله ، بحسب كفره ونفاقه . وقال تعالى : ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً ﴾ [المدثر : ٣١] . وقال تعالى : ﴿ لِيَزْدَادُوا إيماناً مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح : ٤] .

فصل

[في طبقات الأولياء]

وأَولياءُ الله على طبقتين : سابقون مقرَّبون ، وأَصحاب يمين مقتصدُون وذكرهم الله في عدة مواضـع من كتابـه العزيز ، في أَول سورة ﴿ الواقعة ﴾ وآخرها . وفي سورة ﴿ الانسان ﴾ و ﴿ المطففين ﴾ ، وفي سورة ﴿ فاطر ﴾ ؛ فإنه سبحانه وتعالى ذكر في ﴿ الواقعة ﴾ القيـامة الكبـرى في أَولها ، وذكر القيامة الصغرى في آخرها ؛ فقال في أَولها : ﴿ إِذَا وَقَعتِ ٱلْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(*) إِذَا رُجَّتِ ٱلأَرْضُ رَجّاً * وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسّاً * فكَانَتْ هَبَآءً مُنْبَثاً * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً * فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَـةِ * وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْـأَمةِ مَـا أَصْحَابُ ٱلْمَشْـأَمـةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * في جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ ٱلأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلْآخرين ﴾ [الواقعة : ١ ـ ١٤] .

فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرى التي يجمع الله فيها الأَوّلين والآخرين ، كما وصف الله سبحانه ذلك في كتابه في غير موضع ، ثم قال تعالى في آخر السـورة : ﴿ فَلَوْلاَ ﴾ أي فهلاَّ ﴿ إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِـذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْـنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُـمْ وَلَكِـنْ لا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا

إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة : ٨٣ - ٩٦] .

وقال تعالى في سورة الإنسان : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً * إِنْ ٱلأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً ولا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ ٱللهُ شَرَّ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّاهُم نَضْرَةً وَسُرُوراً * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ الآيات [الإنسان : ٣ - ١٢] .

وكذلك ذكر في سورة المطففين فقال : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا ٱلْجَحِيمِ

ثُمَّ يُقَالُ هٰذا ٱلَّذي كُنْتُم بِهِ تَكذِّبُونَ * كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى ٱلأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتامُـــهُ مِسْكٌ وَفي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِها ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين : ٧ ـ ٢٨] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف ، قالوا : يُمزج لأَصحاب اليمين مزجاً ، ويشرب بها المقرَّبون صرفاً ، وهو كما قالوا : فإنه تعالى قال : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ ، ولم يقل يشرب منها ، لأَنه ضمَّن قولَه : يشرب معنى يُروى ، فإن الشارب قد يشرب ولا يروى ، فإذا قيل : يشربون منها ، لم يدل على الري ، فإذا قيل : يشربون بها ، كان المعنى يروون بها ، فالمقرَّبون ، يروون بها فلا يحتاجون معها إلى ما دونها ، فلهذا يشربون منها صرفاً ، بخلاف أَصحاب اليمين فإنها مزجت لهم مزجاً ، وهو كما قال تعالى في سورة الانسان : ﴿ كَانَ مِزَاجُها كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجيراً ﴾ [الإنسان : ٥ ـ ٦]

فعباد الله هم المقربون المذكورون في تلك السورة ، وهذا لأَن الجزاءَ من جنس العمل في الخير والشر ، كما قال النبي ﷺ : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على

معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفَّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطَّأ به عمله لم يُسرع به نسبه » . رواه مسلم في « صحيحه » .[1]

وقال ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماءِ »[2] قال الترمذي : حديث صحيح .

وفي الحديث الآخر الصحيح الذي في « السنن » يقول الله تعالى « أنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسماً

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٩٩) في الذكر والدعاء : باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ، وأبو داود رقم (٤٩٤٦) في الأدب : باب في المعونة للمسلم ، والترمذي رقم (١٤٢٥) في الحدود : باب ما جاء في الستر على المسلم ، ورقم (١٩٣١) في البر والصلة : باب ما جاء في الستر على المسلم ، ورقم (٢٩٤٦) في القراءات : باب رقم ٣ وابن ماجه رقم (٢٢٥) في المقدمة : باب من أحيا سنة قد أميتت . وأحمد في « المسند » ٢ / ٢٥٢ و ٤٠٧ و ٤٤٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو داود رقم (١٤٩٤١) في الأدب : باب في الرحمة ، والترمذي رقم (١٩٢٥) في البر والصلة : باب في رحمة الناس ، وهو حديث صحيح بشواهده، انظر « مجمع الزوائد » ٨ /١٨٧ .

من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته »[1] ،

وقال [ﷺ] : « ومن وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله »[2] ، ومثل هذا كثير .

وأَولياءُ الله تعالى على نـوعين : مقربـون ، وأَصحاب يمين ، كما تقدم وقد ذكر النبي ﷺ عمل القسمين في حديث الأَولياءِ فقال : « يقول الله تعالى : مـن عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرَّب إِليَّ عبدي بمثل أَداءِ ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إِليَّ بالنوافل حتى أُحبه ، فإِذا أَحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها »[3] .

---

(١) رواه أبو داود رقم (١٦٩٤) في الزكاة : باب في صلة الرحم ، والترمذي رقم (١٩٠٨) في البر : باب في قطيعة الرحم ، وأحمد في « المسند » ١ / ١٩٤ من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ورواه أحمد ٢ / ٤٩٨ من حديث أبي هريرةفهوحديث صحيح .

(٢) رواه البخاري ١٣ /٣٩٢ في التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ، ومسلم رقم (٢٥٥٤) في البر : باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ، بلفظ « إن الله خلق الخلق ، حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحِمُ ، فأخذت بحَقْوِ الرحمن فقال : مه ، قالت:هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ، قالت : بلى ، قال : فذلك لك ، ثم قال رسول الله ﷺ : اقرؤ وا إن شئتم ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ [محمد٢٣] . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) تقدم تخريجه ص ٧ .

فالأبرار أصحاب اليمين هم المتقربون إليه بالفرائض ، يفعلون ما أوجب الله عليهم ، ويتركون ما حرم الله عليهم ، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ، ولا الكف عن فضول المباحات .

وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، ففعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات ، والمكروهات ، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم الرب حباً تاماً ، كما قال تعالى [في الحديث القدسي] : « ولا يَزَال عبْدي يَتقَّرب إليَّ بالنَّوافل حتى أُحبه » . يعني الحب المطلق كقوله تعالى : ﴿ اهْدنا الصِّرَاطَ ٱلْمُسْتقِيمَ * صِراطَ الَّذِينَ أَنْعمْتَ علَيْهِمْ * غَيْرِ ٱلْمغْضُوبِ عَلَيهِمْ وَلا الضَّالِّين ﴾ [الفاتحة : ٦ - ٧] أي أَنعم عليهم الإنعام المطلق التام المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَمنْ يُطِعِ الله وَالرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَم الله عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصدِّيقِينَ والشُّهداءِ والصالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً ﴾ [النساء : ٦٩] .

فهؤلاءِ المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات يتقربون بها إلى الله عزَّ وجل ، فكانت أعمالهم كلها عبادات لله ، فشربوا صرفاً ، كما عملوا له صرفاً . والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم ، فلا يعاقبون عليه ، ولا يثابون

عليه ، فلم يشربوا صرفاً ، بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا .

ونظير هذا انقسام الأنبياءِ عليهم السلام إلى عبد رسول ، ونبي ملك ، وقد خير الله سبحانه محمداً ﷺ ، بين أن يكون عبداً رسولاً وبين أن يكون نبياً ملكاً ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً ، فالنبي الملك ، مثل داود وسليمان ونحوهما عليهم الصلاة والسلام ، قال الله تعالى في قصة سليمان الذي قال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص : ٣٥ ـ ٣٩] أي : أعط من شئت ، واحرم من شئت ، لا حساب عليك ، فالنبي الملك ، يفعل ما فرض الله عليه ، ويترك ما حرم الله عليه ، ويتصرف في الولاية والمال بما يحبه ويختار ، من غير إثم عليه .

وأما العبد الرسول ، فلا يعطي أحداً إلا بأمر ربه ، ولا يعطي من يشاءُ ، ويحرم من يشاءُ ، بل يعطي من أمره ربه باعطائه ، ويولي من أمره ربه بتوليته ، فأعماله كلها عبادات لله تعالى ، كما في « صحيح البخاري » عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إني والله لا أعطي أحداً ،

ولا أمنع أحداً ، إنما أنا قاسم أضع حيث أُمرت »[1] ولهذا يضيف الأموال الشرعية إلى الله والرسول ، كقوله تعالى : ﴿ قلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [الأنفال : ١] . وقوله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرىٰ فَلِلّهِ وَلِلرَّسُول ﴾ [الحشر : ٧] وقوله تعالى : ﴿ واعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ ولِلرَّسُولِ ﴾[الأنفال: ٤١]

ولهذا كان أظهر أقوال العلماءِ ، أن هذه الأموال تصرف فيما يحبه الله ورسوله بحسب اجتهاد ولي الأمر ، كما هو مذهب مالك وغيره من السلف ، ويذكر هذا رواية عن أحمد ، وقد قيل في الخمس : إنه يقسم على خمسة ، كقول الشافعي ، وأحمد في المعروف عنه . وقيل : على ثلاثة ، كقول أبي حنيفة رحمه الله .

والمقصود هنا ، أن العبد الرسول ، هو أفضل من النبي الملك ، كما أن إبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً عليهم الصلاة والسلام ، أفضل من يوسف ، وداود ، وسليمان عليهم السلام ، كما أن المقربين السابقين ، أفضل من الأبرار أصحاب اليمين ، الذين ليسوا مقربين سابقين ، فمن

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٢ /٤٨٢ بلفظ : « والله ما أعطيكم ولا أمنعكم ، وإني أنا قاسم أضعه حيث أمرت » ورواه البخاري ٦ /١٥٣ في فرض الخمس : باب قوله تعالى : ﴿ فأن لله خمسه وللرسول ﴾ ورواية المصنف رحمه الله له بالمعنى ، وهو أقرب إلى رواية أحمد .

أَدى ما أَوجب الله عليه ، وفعل من المباحات ما يحبه ، فهو من هؤلاءِ ، ومن كان إِنما يفعل ما يحبه الله ويرضاه ، ويقصد أَن يستعين بما أُبيح له على ما أَمره الله ، فهو من أُولئك .

فصل

[أصناف أمة محمد ، والرد على المعتزلة والمرجئة]

وقد ذكر الله تعالى أَولياءَه المقتصدين والسابقين في سورة ﴿ فاطر ﴾ في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ ٱلَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدنٍ يَدْخُلونَهَا يُحلَّون فِيها مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ * وقَالُوا الحَمْدُ لِله ٱلَّذي أَذْهَب عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شكُور * الَّذي أَحَلَّنا دَارَ المُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٢-٣٥]

ولكن هذه الأَصناف الثلاثة في هذه الآية ، هم أُمة محمد ﷺ خاصة ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَينا مِنْ عِبادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ومِنْهُمْ سَابِقٌ بالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢] .

وأُمة محمد ﷺ ، هم الذين أُورثوا الكتاب بعد الأُمم المتقدمة ، وليس ذلك مختصاً بحفاظ القرآن ، بل كل من آمن بالقرآن فهو من هؤلاءِ ، وقسمهم إلى ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق ، بخلاف الآيات التي في ﴿ الواقعة ﴾ و ﴿ المطففين ﴾ و ﴿ الانفطار ﴾[1] فإنه دخل فيها جميع الأُمم المتقدمة ، كافرهم ومؤمنهم ، وهذا التقسيم لأُمة محمد ﷺ ، فالظالم لنفسه : أَصحاب الذنوب المصرّون عليها . والمقتصد : المؤدِّي للفرائض ، المجتنب للمحارم . والسابق للخيرات : هو المؤدي للفرائض والنوافل ، كما في تلك الآيات . ومن تاب من ذنبه ، أَي ذنب كان ، توبة صحيحة ، لم يخرج بذلك عن السابقين والمقتصدين ، كما

---

(١) والآيات في سورة الواقعة [٧ - ١٠] : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ المَيْمنةِ مَا أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ * وأصحاب المَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾.

والآياتِ في سورةَ الإنفطار [١٣ - ١٤] : ﴿ إِنَّ الأَبْرارَ لِفي نِعيمٍ * وَإِنَّ الفُجَّارَ لِفي جَحِيمٍ ﴾ .

والآيات في سورة المطففين [٦ - ١٨] :

﴿ كَلَّا إِنَ كِتَبَ الفُجَار لَفِي سِجّينٍ * وَمَا أَدراكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئذٍ للمكذبينَ * الَّذينَ يُكذبُون بيَوْم الدِّينِ * وَمَا يُكذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثيم * إِذَا تُتلَى عَلَيْهِ آيَاتُنا قَالَ أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ * كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنَ رَبهِمْ يَومئذٍ لَمَحجُوبُونَ * ثُمَّ إِنهُم لَصَالوا الجَحِيمِ * ثُمَ يُقَالُ هذا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِبُونَ * كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبرارِ لَفِي عِلِّيين ﴾ .

في قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَٱلأَرْضُ أُعِدَّت لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣ - ١٣٦] .

وقوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [الرعد : ٢٣] مما يستدل به أهل السنة ، على أنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد .

وأما دخول كثير من أهل الكبائر النار ، فهذا مما تواترت به السنن عن النبي ﷺ ، كما تواترت بخروجهم من النار ، وشفاعة نبينا محمد ﷺ في أهل الكبائر ، وإخراج من يخرج من النار بشفاعة نبينا ﷺ ، وشفاعة غيره ؛ فمن قال : إن أهل الكبائر مخلدون في النار ، وتأول الآية على أن السابقين ، هم الذين يدخلونها ، وأن المقتصد أو الظالم لنفسه لا يدخلها ، كما تأوّله من تأوله من المعتزلة ، فهو مقابل بتأويل المرجئة ، الذين لا يقطعون بدخول أحد من أهل الكبائر النار ، ويزعمون أن أهل الكبائر قد يدخل

جميعهم الجنة من غير عذاب ، وكلاهما مخالف للسنة المتواترة عن النبي ﷺ ، ولإجماع سلف الأُمة وأئمتها .

وقد دلَّ على فساد قول الطائفتين قول الله تعالى في آيتين من كتابه ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨ و ١١٦] فأَخبر تعالى أنه لا يغفر الشرك ، وأَخبر أنه يغفر ما دونه لمن يشاءُ ، ولا يجوز أَن يراد بذلك التائب ، كما يقوله من يقوله من المعتزلة ، لأَن الشرك يغفره الله لمن تاب ، وما دون الشرك ، يغفره الله أَيضاً للتائب ، فلا تعلق بالمشيئة ، ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، فهنا عمَّم المغفرة وأَطلقها ، فإِنَّ الله يغْفِر للعبد أَي ذنب تاب منه ، فمن تاب من الشرك غفر الله له ، ومن تاب من الكبائر غفر الله له ، وأَي ذنب تاب العبد منه غفر الله له .

ففي آية التوبة[1] ؛ عمّم وأَطلق ، وفي تلك الآية [2] خصص وعلق ، فخص الشرك بأَنه لا يغفره ، وعلق ما سواه

---

(١) المراد آية التوبة الواردة في سورة الزمر : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا . . . ﴾

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ . . . ﴾

على المشيئة ، ومن الشرك التعطيل للخالق ، وهذا يدل على فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذنب ، ونبه بالشرك على ما هو أعظم منه ، كتعطيل الخالق ، أو يجوّز أن لا يعذب بذنب ، فإنه لو كان كذلك ، لما ذكر أنه يغفر للبعض دون البعض ، ولو كان كل ظالم لنفسه مغفوراً له ، بلا توبة ولا حسنات ماحية ، لم يعلق ذلك بالمشيئة .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨ و ١١٦] دليل على أنه يغفر للبعض دون البعض ، فبطل النفي والعفو العام .

فصل

[في تفاضيل المؤمنين]

وإذا كان أولياء الله عز وجل ، هم المؤمنين المتقين ، والناس يتفاضلون في الإيمان والتقوى ، فهم متفاضلون في ولاية الله بحسب ذلك ، كما أنهم لما كانوا متفاضلين في الكفر والنفاق ، كانوا متفاضلين في عداوة الله بحسب ذلك .

وأصل الإيمان والتقوى : الايمان برسل الله ، وجِماعُ ذلك : الإيمان بخاتم الرسل محمد ﷺ ؛ فالإيمان به يتضمن الايمان بجميع كتب الله ورسله . وأصل الكفر والنفاق ، هو

الكفر بالرسل ، وبما جـاوؤا به ، فإن هذا هو الكفر الذي يستحق صاحبه العذاب في الآخرة ، فإن الله تعالى أخبر في كتابه ، أنه لا يعذب أحداً إلا بعد بلوغ الرسالة . قال الله تعالى :﴿ وما كُنَّا مُعَذِّبينَ حَتَّى نَبْعَث رَسُولاً ﴾[الإسراء : ١٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَينا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلى إِبْراهِيمَ وإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وأيوُّبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا داودَ زَبُوراً * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْل وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً * رُسُلاً مُبَشِّرين ومُنْذِرينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥] .

وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ كُلَّما أُلْقِي فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَـا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا في ضَـلالٍ كَبِيـرٍ ﴾ [الملك : ٨ ـ ٩] فأخبر أنه كلما أُلقي في النار فوج أقروا بأنهم جاءَهم النذير فكذبوه ، فدل ذلك على أنه لا يلقى فيها فوج إلا من كذب النذير . وقال تعالى في خطابه لإبليس : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمُ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[ص : ٨٥] فأخبر أنه يملؤها بإبليس ومن اتبعه ، فإذا ملئت بهم لم يـدخلها غيـرهم . فعلم أنه لا يـدخل النـار إلا من تبع

الشيطان ، وهذا يدل على أَنه لا يدخلها من لا ذنب له ، فإِنه ممن لم يتبع الشيطان ولم يكن مذنباً ، وما تقدم يدل على أَنه لا يدخلها إلا من قامت عليه الحجة بالرسل .

فصل

[الإيمان المجمل والإيمان المفصل]

ومن الناس من يؤمن بالرسل إيماناً عـامـاً مجملاً ، وأَما الإيمان المفصل ، فيكون قد بلغه كثير مما جاءَت به الرسل ولم يبلغه بعض ذلك ، فيؤمن بما بلغه عن الرسل ، وما لم يبلغه لم يعرفه ، ولو بلغه لآمن به ، ولكن آمن بما جاءَت به الرسل إيماناً مجملاً ، فهذا إذا عمل بما علم أَن الله أَمره به مع إيمانه وتقواه ، فهو من أَولياءِ الله تعالى ، له من ولاية الله بحسب إيمانه وتقواه . وما لم تقم عليه الحجة به ، فإن الله تعالى لم يكلِّفه معرفته ، والإيمان المفصل به ، فلا يعذبه على تركه ، لكن يفوته من كمال ولاية الله بحسب ما فاته من ذلك ، فمن علم بما جاءَ به الرسول ، وآمن بـه إيمانـاً مفصلاً ، وعمل به ، فهو أَكمل إيماناً وولاية لله ممن لم يعلم ذلك مفصلاً ، ولم يعمل به ، وكلاهما ولي الله تعالى . والجنة درجات متفاضلة تفاضلاً عظيماً ، وأَولياءُ الله المؤمنون

المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً * كُلاًّ نُمِدّ هَؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرجاتٍ وَأَكْبَر تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ١٨ - ٢١] .

فبين الله سبحانه وتعالى ، أَنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه ، وأَن عطاءَه ما كان محظوراً من برّ ولا فاجر ، ثـمَّ قال تعالى : ﴿ أُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكبرُ دَرَجاتٍ وأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٢١] .

فبين الله سبحـانه ، أَن أَهـل الآخـرة يتفـاضلون فيهـا أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا ، وأَن درجاتها أَكبر من درجات الدنيا ، وقد بين تفاضل أَنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين ، فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ ٱللهُ وَرفَعَ بَعْضَهُم دَرجاتٍ وَآتَيْنَا عِيسى ابنَ مَرْيَمَ ٱلْبيِّنَاتِ وَأَيَّدْنـاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بعْضٍ وَآتَيْنَا دَاودَ زَبُوراً ﴾ [الإسراء : ٥٥] .

وفي « صحيح مسلم » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال: « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجِز ، وإن أصابك شيءٌ ، فلا تقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا ؛ ولكن قل : قدر الله وما شاءَ فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان »[1] .

وفي « الصحيحين » عن أبي هريرة ، وعمرو بن العاص رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر »[2] .

وقد قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [الحديد : ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غير أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) في القدر : باب في الأمر بالقوة وترك العجز وأحمد ٢ / ٣٦٦ و ٣٧٠ .

(٢) رواه البخاري ١٣ /٢٦٨ في الاعتصام : باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ، ومسلم رقم (١٧١٦) في الأقضية : باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ، وأبو داود رقم (٣٥٧٤) في الأقضية : باب في القاضي يخطىء .

فَضَّلَ اللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَموالِهِم وَأَنْفُسِهِمْ عَلَىٰ ٱلْقاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَى وَفَضَّلَ ٱللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَىٰ ٱلْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً * دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمةً وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [النساء : ٩٥ ـ ٩٦] .

وقال تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَة ٱلْحَاجِّ وَعِمارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرام كَمَنْ آمَنَ باللهِ وَٱلْيوْمِ الآخِرِ وَجَاهد فِي سبِيلِ اللهِ لَا يسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ واللهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ * يُبَشِّرهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً إِنَّ الله عِنْدهُ أَجْرٌ عَظِيم ﴾ [التوبة : ١٩ ـ ٢٢]

وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آناَءَ الليْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللهُ ٱلَّذِينَ آمنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلعِلْمَ دَرجاتٍ وَٱللهُ بِمَا تَعْملونَ خَبيرٌ ﴾ [المجادلة : ١١] .

* * *

فصل

[لا يكون الضال والمجنون وليّاً]

وإذا كان العبد لا يكون ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقياً ، لقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[يونس: ٦٢ ٦٣].

وفي « صحيح البخاري » الحديث المشهور ، وقد تقدم يقول الله تبارك وتعالى فيه : « ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافِل حتَّى أُحبّه » ولا يكون مؤمناً تقياً حتى يتقرب إلى الله بالفرائض ، فيكون من الأبرار أهل اليمين ، ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب بالنوافل ، حتى يكون من السابقين المقربين ؛ فمعلوم أن أحداً من الكفار والمنافقين لا يكون ولياً لله ، وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته وإن قدر أنه لا إثم عليه مثل أطفال الكفار ، ومن لم تبلغه الدعوة ، وإن قيل : إنهم لا يعذبون حتى يرسل إليهم ، فلا يكونون من أولياءِ الله ، إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين ، فمن لم يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئات ، لم يكن من أولياءِ الله ؛ وكذلك المجانين والأطفال ، فإن النبي ﷺ قال : « يرفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن

الصبي حتى يحتلم ، وعن النـائم حتى يستيقظ » وهـذا الحديث قد رواه أهل « السنن » من حديث علي وعائشة رضي الله عنهما[1] ، واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول ، لكن الصبي المميز تصح عباداته ويثاب عليها عند جمهور العلماءِ ، وأما المجنون الذي رفع عنه القلم ؛ فلا يصح شيءٌ من عباداته باتفاق العلماءِ ، ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات ، بل لا يصلح هو عند عامة العقلاءِ لأمور الدنيا كالتجارة والصناعة ، فلا يصلح أن يكون بزّازاً ولا عطاراً ولا حداداً ولا نجاراً ، ولا تصح عقوده باتفاق العلماءِ ، فلا يصح بيعه ولا شراؤُه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته ، ولا غير ذلك من أقواله ، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعي ، ولا ثواب ولا عقاب ، بخلاف الصبي المميز فإن له أقوالاً معتبـرة فـي مواضع بالنص والإجماع ، وفي مواضع فيها نزاع .

وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ، ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، وامتنع أن يكون ولياً لله ،

---

(١) رواه ابو داود رقم (٤٤٠٣) في الحدود : باب في المجنون يسرق او يصيب حداً، والترمذي رقم (١٤٣٣) في الحدود: باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ورواه ابو داود رقم (٤٣٩٨) في الحدود : باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً ، والنسائي ٦/١٥٦ في الطلاق: باب من لا يقع طلاقه من الأزواج ، ورواه أحمد في «المسند» ١/١١٦ و١١٨ و ١٤٠ و ١٥٥ و ١٥٨ و ٦/١٠٠ و ١٠١ و ١٤٤ ،واسناده صحيح .

فــلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله ، لا سيما أن تكون حجته على ذلك ، إما مكاشفة سمعها منه ، أو نوع من تصرف ، مثل أن يراه قد أشار إلى واحد ، فمات أو صرع ، فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب ، لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية ، كالكهان والسحرة وعبّاد المشركين ، وأهل الكتاب ، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرّد ذلك على كون الشخص ولياً لله ، وإن لم يعلم منه ما يناقض ولاية الله ، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله ، مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ باطناً وظاهراً ، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة ، أو يعتقد أن لأولياءِ الله طريقاً إلى الله غير طريق الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام ، أو يقول : إن الأنبياءَ ضيقوا الطريق ، أو هم قدوة على العامة ، دون الخاصة ، ونحو ذلك ،مما يقوله بعض من يدعي الولاية ، فهؤلاءِ فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان ، فضلاً عن ولاية الله عز وجل ، فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خرق عادة على ولايتهم ، كان أضل من اليهود والنصارى .

وكذلك المجنون ، فإن كونه مجنوناً ، يناقض أن يصح منه الايمان والعبادات التي هي شرط في ولاية الله ، ومن كان يجن أحياناً ويفيق أحياناً ، إذا كان في حال إفاقته مؤمناً بالله ورسوله ، ويؤدي الفرائض ، ويجتنب المحارم ، فهذا إذا

جن ، لم يكن جنونه مانعاً من أن يثيبه الله على إيمـانه وتقواه الذي أتى به في حال إفاقته ، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك ، وكذلك من طرأ عليه الجنون بعد إيمانه وتقواه ، فإن الله يثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه ، ولا يحبطه بالجنون الذي ابتلي به من غير ذنب فعله ، والقلم مرفوع عنه في حال جنونه .

فعلى هذا فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض ، ولا يجتنب المحارم بل قد يأتي بما يناقض ذلك ، لم يكن لأحد أن يقول : هذا ولي الله ، فإن هذا ان لم يكن مجنوناً ، بل كان متولهاً من غير جنون ، أو كان يغيب عقله بالجنون تارة . ويفيق أخرى ، وهو لا يقوم بالفرائض ، بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ ، فهو كافر . وإن كان مجنوناً باطناً وظاهراً قد ارتفع عنه القلم ، فهذا وإن لم يكن معاقباً عقوبة الكافرين ، فليس هو مستحقاً لما يستحقه أهل الايمان والتقوى من كرامة الله عز وجل ، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولي لله ، ولكن إن كان له حالة في إفاقته ، كان فيها مؤمناً بالله متقياً ، كان له من ولاية الله بحسب ذلك ، وإن كان له في حال إفاقته فيه كفر أو نفاق ، أو كان كافراً أو منافقاً ، ثم طرأ عليه الجنون ، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه ، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق .

فصل

[ليس للأولياء لباس خاص وهم موجودون في جميع أصناف الأمة]

وليس لأولياءِ الله شيءٌ يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات ، فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحاً ، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره ، إذا كان مباحاً ، كما قيل : كم من صديق في قباء ، وكم من زنديق في عباء . بل يوجد في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور ، فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم ، ويوجد في أهل الجهاد والسيف ويوجدون في التجّار والصنّاع والزرّاع .

وقد ذكر الله أصناف أمة محمد ﷺ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَؤُوا ما تَيَسَّر مِنْهُ ﴾ [المزمل : ٢٠] .

وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم : القراءَ ، فيدخل

فيهم العلماءُ والنُّسَّاك ، ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراءِ . .

واسم الصوفية : هو نسبة إلى لباس الصوف ، هذا هو الصحيح . وقد قيل : إنه نسبة إلى صفوة الفقهاءِ . وقيل : إلى صوفة بن مر ابن اد بن طابخة ، قبيلة من العرب ، كانوا يعرفون بالنسك ، وقيل إلى أهل الصفَّة . وقيل : إلى أهل الصفاءِ وقيل : إلى الصفوة . وقيل : إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى ؛ وهذه أقوال ضعيفة ، فإنه لو كان كذلك لقيل : صُفِّي ، أو صفائي ، أو صفوي أو صفي ، ولم يقل : صوفي ، وصار اسم الفقراءِ ، يعني به أهل السلوك ، وهذا عرف حادث .

وقد تنازع الناس : أيهما أفضل ، مسمى الصوفي ، أو مسمى الفقير ؟ ويتنازعون أيضاً أيهما أفضل ، الغني الشاكر ، أو الفقير الصابر ؟

وهذه المسألة فيها نزاع قديم ، بين الجنيد وبين أبي العباس بن عطاء ، وقد روي عن أحمد بن حنبل فيها روايتان ، والصواب في هذا كله ما قاله الله تبارك وتعالى ، حيث قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وفي « الصحيح » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، أنه سُئِل : أي الناس أفضل ؟ قال : « أتقاهم » قيل له : ليس عن هذا نسألك ، فقال : « يوسف نبي الله ، ابن يعقوب نبي الله ، ابن اسحاق نبي الله ، ابن إبراهيم خليل الله » . فقيل له : ليس عن هذا نسألك . فقال : « عن معادن العرب تسألوني ؟ الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام ، إذا فقهوا »[١] .

فدل الكتاب والسنة أن أكرم الناس عند الله أتقاهم .

وفي « السنن » عن النبي ﷺ أنه قال : « لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أبيض ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب »[٢] .

وعنه أيضاً ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى أذهب عنكم

---

(١) رواه البخاري ٦/٢٧٦ في أحاديث الأنبياء : باب ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ﴾ . ومسلم رقم (٢٦٣٨) (١٦٠) من حديث ابن هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه أحمد في « المسند » ٥ / ٤١١ عن أبي نضرة وهو حديث صحيح ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

عُبِّيَّة[1] الجاهلية ، وفخرها بالآباءِ ، الناس رجلان : مؤمن تقي ، وفاجر شقي »[2] .

فمن كان من هذه الأَصناف أتقى لله ، فهو أَكرم عند الله ، وإِذا استويا في التقوى ، استويا في الدرجة .

ولفظ الفقر في الشرع ، يراد به الفقر من المال ، ويراد به فقر المخلوق إِلى خالقه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ ﴾ [التوبة : ٦٠] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ ﴾ [فاطر : ١٥]

وقد مدح الله تعالى في القرآن صنفين من الفقراءِ : أَهل الصدقات ، وأَهل الـفـيءِ .

فقال في الصنف الأَول : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ

---

(١) قال ابن الأثير: العُبِّيَّة بضم العين وكسرها ، وتشديد الباء والياء، مأخوذ من العَب : النور والضوء ؛ وقيل : من العبْءِ: الثقل. وقال الخطابي: الكبر والنخوة .

(٢) رواه احمد في «المسند» ٢ / ٥٢٤ وأبو داود رقم (٥١١٦) في الادب : باب التفاخر بالاحساب ، والترمذي رقم (٣٩٥٠) في المناقب من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه الترمذي رقم (٣٢٦٦) في التفسير :باب ومن سورة الحجرات من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما وهو حديث صحيح .

أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ [البقرة : ٢٧٣] .

وقال في الصنف الثاني ، وهم أفضل الصنفين : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر : ٨] .

وهذه صفة المهاجرين الذين هجروا السيئات ، وجاهدوا أعداء الله باطناً وظاهراً ، كما قال النبي ﷺ : « المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم »[١] و « المسلم من سلِم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه »[٢] « والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله »[٣] .

---

(١) رواه أحمد في «المسند» ٣/١٥٤ من حديث انس بن مالك رضي الله عنه ، و ٦ / ٢١ و ٢٢ وابن ماجه رقم (٣٩٣٤) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، والترمذي رقم (٢٦٢٩) في الإيمان : باب رقم ١٢ والنسائي ٨ / ١٠٤ ، ١٠٥ : باب صفة المؤمن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو حديث صحيح .

(٢) رواه البخاري ١ / ٥٠ ، ٥١ في الإيمان : باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، ومسلم رقم (٤٠) في الإيمان : باب بيان تفاضل الإسلام ، وأبو داود رقم (٢٤٨١) في الجهاد : باب في الهجرة ، والترمذي رقم (١٥٩٠) في السير : باب الهجرة والنسائي ٨ /١٠٥ في الإيمان : باب صفة المسلم) واحمد في « المسند » ٢ /١٦٣ و ١٩٢ و ١٩٣ و ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢٠٩ و ٢١٢ و ٢١٥ و ٢٢٤. من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٣) رواه أحمد في « المسند » ٦ / ٢٠ و ٢٢ والترمذي رقم (١٦٢١) في فضائل الجهاد : =

وأما الحديث الذي يرويه بعضهم ، أنه قال في غزوة تبوك : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » فلا أصل له ، ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله[1] .

وجهاد الكفار من أعظم الأعمال ، بل هو أفضل ما تطوَّع به الإنسان . قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَموالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ على ٱلْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَىٰ ٱلْقَاعِدينَ أَجْراً عظِيماً ﴾ [النساء : ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَٱللهُ لا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَموالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْفائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ

= باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً ، من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، واسناده حسن ، وقال الترمذي : وحديث فضالة حديث حسن صحيح .

(١) هو مشهور على الألسنة بهذا اللفظ ، وقد رواه الخطيب البغدادي ، والديلمي ، والبيهقي في الزهد ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، بلفظ « قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، مجاهدة العبد هواه » وهو حديث ضعيف .

مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقيمٌ * خَالِدينَ فِيهَا أَبداً إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٩ ـ ٢٢] .

وثبت في « صحيح مسلم » وغيره عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، قال : كنت عند النبي ﷺ ، فقال رجل : ما أبالي ألَّا أعمل عملاً بعد الاسلام إلا أن أسقي الحاج ، وقال آخر : ما أبالي أن أعمل عملاً بعد الاسلام ، إلا أن أعمر المسجد الحرام ، وقال علي ابن أبي طالب : الجهاد في سبيل الله أفضل مما ذكرتما ، فقال عمر : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ولكن إذا قضيت الصلاة سألته ، فسأله فأنزل الله تعالى هذه الآية[١] .

وفي « الصحيحين » عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي الأعمال أفضل عند الله عز وجل؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » . قال : حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني[٢] .

---

(١) رواه مسلم رقم (١٨٧٩) في الإمارة : باب فضل الشهادة في سبيل الله .

(٢) البخاري ٢ /٧ في مواقيت الصلاة : باب فضل الصلاة لوقتها ، وفي الجهاد : باب فضل الجهاد ، وفي الأدب : باب قول الله تعالى ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾ وفي التوحيد : باب وسمى النبي ﷺ الصلاة عملاً ، ومسلم رقم (٨٥) في الإيمان : باب بيان =

وفي « الصحيحين » عنه ﷺ أنه سئل : أي الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ، وجهاد في سبيله » قيل : ثم ماذا ؟ قال : « حج مبرور »[1] .

وفي « الصحيحين » أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ! أخبرني بعمل يعدل الجهاد في سبيل الله ، قال : « لا تستطيعه ، أو لا تطيقه » قال: فأخبرني به ، قال : « هل تستطيع إذا خرجت مجاهداً أن تصوم ولا تفطر ، وتقوم ولا تفتر ؟ »[2] .

وفي « السنن » عن معاذ رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، أنه وصاه لما بعثه إلى اليمن ، فقال : « يا معاذ اتق الله حيثما

كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ، والترمذي رقم (١٨٩٩) في البر والصلة : باب رقم ٢ والنسائي ١ /١٩٣ و ١٩٤ في المواقيت : باب فضل الصلاة لمواقيتها . وأحمد في « المسند » ١ /٤٥١ .

(١) رواه البخاري ١ /٧٣ في الإيمان : باب من قال : إن الإيمان هو العمل ، وفي الحج : باب فضل الحج المبرور ، ومسلم رقم (٨٣) في الإيمان : باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ، والترمذي رقم (١٦٥٨) في فضائل الجهاد : باب ما جاء في أي الأعمال أفضل ، والنسائي ٥ / ١١٣ في الحج : باب فضل الحج ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري٦ /٣ في الجهاد : باب فضل الجهاد والسير ، ومسلم رقم (١٨٧٨) في الإمارة : باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى ، و« الموطأ » ١ /٤٤٣ في الجهاد : باب الترغيب في الجهاد ، والنسائي ٦ /١٩ في الجهاد : باب ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »[1] .

وقال : « يا معاذ إني لأحبك ، فلا تدع أن تقول في دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك ، وحسن عبادتك »[2] .

وقال له وهو رديفه : « يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حقه عليهم أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حقهم عليه ألَّا يعذبهم »[3] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٥ /٢٢٨ و ٢٣٦ عن معاذ رضي الله عنه و ٥ /١٥٣ و ١٥٨ و ١٦٩ والترمذي رقم (١٩٨٨) في البر : باب ما جاء في معاشرة الناس ، من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، ورواه أبو داود والدارمي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » وقد روي عن النبي ﷺ أنه أوصى بهذه الوصية معاذاً وأبا ذر من وجوه ، قال : وهي وصية عظيمة جامعة لحقوق الله وحقوق عباده .

(٢) رواه أبو داود رقم (١٥٢٢) في الصلاة : باب الاستغفار ، والنسائي ٣ /٥٣ في السهو : باب نوع آخر من الدعاء : وإسناده صحيح .

(٣) رواه البخاري ١٣ / ٣٠٠ في التوحيد : باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، وفي الجهاد : باب اسم الفرس والحمار ، وفي اللباس : باب حمل صاحب الدابة غيره بين يديه ، وفي الاستئذان : باب من أجاب بلبيك وسعديك ، وفي الرقاق : باب من جاهد نفسه ، وفي العلم : باب من خص بالعلم قوماً دون قوم ، =

وقال أيضاً لمعاذ : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله »(١) .

وقال : « يا معاذ ألا أُخبرك بأبواب البر ؟ الصوم جُنة ، والصدقة تطفيءُ الخطيئة كما يطفىءُ الماءُ النار ، وقيام الرجل في جوف الليل » ثم قرأ : ﴿ تَتَجافى جُنُوبُهم عَنِ ٱلْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون * فلا تعلم نفس ما أُخفي لَهُمْ مِنْ قرّة أَعْيُن جزَاءً بِما كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ ثم قال : « يا معاذ ألا أُخبرك بما هو أملك لك من ذلك ؟ » فقال : « أمسك عليك لسانك هذا » ، فأخذ بلسانه ، قال : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « ثكلتك أمّك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم »(٢) .

= و مسلم رقم (٣٠) في الإيمان ؛باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ، والترمذي رقم (٢٦٤٥) في الإيمان : باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ، وأحمد في « المسند » ٥ /٢٢٨ و ٢٣٠ و ٢٣٤ و ٢٣٦ و ٢٣٨ و ٢٤٢ .

(١) قطعة من الحديث التالي :

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٦١٩) في الإيمان : باب ما جاء في حرمة الصلاة ، من حديث معاذ رضي الله عنه، وقال الترمذي :حديث حسن صحيح . وأخرجه احمد في « المسند » ٥ /٢٣١ من حديث أبي وائل عن معاذ ، ولم يثبت سماع أبي وائل من معاذ ، وأخرجه أيضاً ٥ /٢٣٧ من رواية عروة بن النزال وميمون بن أبي شبيب ، كلاهما عن معاذ ، ولم يسمعا منه أيضاً ، وأخرجه أيضاً ٥ /٢٣٦ مختصراً من رواية شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غنم ، عن معاذ ، فالحديث صحيح بطرقه .

وتفسير هذا ما ثبت في « الصحيحين » عنه ﷺ أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[1] فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه ، والصمت عن الشر خير من التكلم به ، فأما الصمت الدائم فبدعة منهي عنها ، وكذلك الامتناع عن أكل الخبز واللحم وشرب الماءِ ، فذلك من البدع المذمومة أيضاً ، كما ثبت في « صحيح البخاري » عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ، ولا يستظل ، ولا يتكلم ، ويصوم ، فقال النبي ﷺ : « مروه فليجلس ، وليستظل ، وليتكلم ، وليتم صومه »[2] .

وثبت في « الصحيحين » عن أنس أن رجالاً سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ ، فكأنهم تقالُّوها . فقالوا : وأيُّنا مثل

---

(١) رواه البخاري ١٠ /٣٧٣ في الأدب : باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، وباب اكرام الضيف ، وفي الرقاق : باب حفظ اللسان ، ومسلم رقم (٤٧) في الإيمان : باب الحث على إكرام الجار ، وأبو داود رقم (٥١٥٤) في الأدب : باب في حق الجوار ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري ١١ /٥١٢ في الأيمان والنذور : باب النذر فيما لا يملك وفي معصية ، و « الموطأ » ٢ /٤٧٥ في الأيمان والنذور : باب ما لا يجوز من النذور في معصية الله ، وأبو داود رقم (٣٣٠٠) في الأيمان والنذور : باب ما جاء في النذر في المعصية ، وابن ماجه رقم (٢١٣٦) في الكفارات : باب من خلط في نذره طاعة بمعصية .

رسول الله ﷺ ؟ ثم قال أحدهم : أما أنا فأصوم ولا أفطر ، وقال الآخر: أما أنا فأقوم ولا أنام ، وقال الآخر :أما أنا فلا آكل اللحم، وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساءَ، فقال رسول الله ﷺ : « ما بال رجال يقول أحدهم : كذا وكذا ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساءَ ، فمن رغب عن سنتي فليس مني »[1] ؛ أي سلك غيرها ظاناً أن غيرها خير منها ، فمن كان كذلك فهو بريءٌ من الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة : ١٣٠] بل يجب على كل مسلم أن يعتقد أن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ؛ كما ثبت عنه في « الصحيح »[2] أنه كان يخطب بذلك كل يوم جمعة .

فصل

[العصمة للأنبياء وليست للأولياء]

وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً لا يغلط ولا يخطىء ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة

---

(١) البخاري ١١ / ٤ في النكاح : باب الترغيب في النكاح ، ومسلم رقم (١٤٠١) في النكاح : باب استحباب النكاح ، والنسائي ٦ / ٦٠ في النكاح : باب النهي عن التبتل، وأحمد في « المسند » ٣ / ٢٤١ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم رقم (٨٦٧) في الجمعة : باب تخفيف الصلاة والخطبة وأحمد في « المسند » ٣ / ٣١٩ و ٣٧١ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين ، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه ، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياءِ الله تعالى ، وتكون من الشيطان لبَّسها عليه لنقص درجته ، ولا يعرف أنها من الشيطان ، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى ، فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ، فقال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنَا غُفْرانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَها مَا كَسَبتْ وَعَلَيْها مَا ٱكْتَسَبتْ رَبَّنَا لا تُؤاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا ولا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كما حَمَلْتَهُ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنا بِهِ وَٱعْفُ عنَّا وَٱغْفِرْ لنا وَٱرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانا فَانْصُرْنَا عَلَىٰ ٱلْقَومِ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٥ - ٢٨٦] .

وقد ثبت في « الصحيح »[1] أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء وقال : « قد فعلت » .

ففي « صحيح مسلم » عن ابن عباس رضي الله عنهما ،

---

(١) أي صحيح مسلم رقم (١٢٥) في الإيمان : باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وإنْ تُبْدُوا مَا في أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَآءُ ويُعذِّبُ مَنْ يَشَآءُ واللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ . قال : دخل قلوبهم منها شيءٌ لم يدخلها قبل ذلك شيءٌ أَشـد منه ، فقال النبي ﷺ : « قولوا سمعنا وأطعنا وسلَّمنا » قال : فأَلقى الله الايمان في قلوبهم ، فأَنزل الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها ﴾ إلى قوله ﴿ أَوْ أَخْطَأنا ﴾ قال الله : « قد فعلت » ﴿ رَبَّنا ولَا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ قال : « قد فعلت » ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنا مَا لَا طَاقَةَ لَنا بِهِ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنا عَلَىٰ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِين ﴾ [البقرة : ٢٨٦] قال : « قد فعلت »[١] . وقد قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَـا تَعَمَّدت قُلُوبكم ﴾ [الأحزاب : ٥] .

وثبت في « الصحيحين » عن النبي ﷺ من حديث أَبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً ، أَنه قال : « إِذا اجتهد الحاكم فأَصاب فله أَجـران ، وإِن أَخطأَ فله أَجر »[٢] . فلم يؤثم المجتهد المخطىءَ ، بل جعل له أَجراً

(١) رواه مسلم رقم (١٢٦) في الإيمان : باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلـف إلا ما يطاق ، والترمذي رقم (٢٩٩٥)في التفسير :باب ومن سورة البقرة .

(٢) تقدم تخريجه ص ٤٦

على اجتهاده ، وجعل خطأه مغفوراً له ، ولكن المجتهد المصيب له أجران ، فهو أفضل منه ، ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط ، لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي لله ، إلا أن يكون نبياً ، بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه ، إلا أن يكون موافقاً ، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق ، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاءَ به محمد ﷺ فإن وافقه قبله ، وإن خالفه لم يقبله ، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه .

والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف : طرفان ووسط ، فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي لله ، وافقه في كل ما يظن أنه حدثه به قلبه عنَ ربه ، وسلَّم إليه جميع ما يفعله ؛ ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع ، أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهداً مخطئاً ؛ وخيار الأمور أوساطها ، وهو أن لا يُجعل معصوماً ولا مأثوماً إذا كان مجتهداً مخطئاً ، فلا يتبع في كل ما يقوله ، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده .

والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله ، واما إذا خالف قول بعض الفقهاءِ ووافق قول آخرين ، لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ، ويقول : هذا خالف الشرع .

وقد ثبت في « الصحيحين » عن النبي ﷺ أنه قال : « قد كان في الأُمم قبلكم محدَّثون فإن يكن في أُمتي أَحد فعمر منهم »[1] .

وروى الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أَنه قال : « لو لم أُبعث فيكم لبعث فيكم عمر »[2] .

وفي حديث آخر : « إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه »[3] .

---

(١) رواه البخاري ٧ / ٤٠ و ٤١ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، مسنداً ومعلقاً ، وفي الأنبياء : باب ما ذكر عن بني اسرائيل ، ومسلم رقم (٢٣٩٨) في فضائل الصحابة : باب من فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأحمد في « المسند » ٦ /٥٥ من حديث عائشة .

(٢) ليس هو في الترمذي ، رواه الديلمي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال الحافظ العراقي : حديث منكر . وقال الشوكاني في « الفوائد المجموعة »: رواه ابن عدي من حديث بلال ، وفي سنده وضاع ، ورواه أحمد والترمذي والحاكم من حديث عقبة بن عامر ، والطبراني عن عصمة بن مالك رضي الله عنه بلفظ « لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب » وهو حديث حسن .

(٣) رواه الترمذي رقم (٣٦٨٣) في المناقب : باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وإسناده حسن ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب ، قال : وفي الباب عن الفضل بن عباس وأبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهم .

وفيه : « لو كان نبي بعدي لكان عمر »[1] .

وكان علي ابن أبي طالب رضي الله عنه يقول : ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر . ثبت هذا عنه من رواية الشعبي .

وقال ابن عمر : ما كان عمر يقول في شيء : إني لأراه كذا ، إلا كان كما يقول .

وعن قيس بن طارق قال : كنا نتحدث أن عمر ينطق على لسانه ملك .

وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة .

وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنها تتجلى للمطيعين ، هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم ، فقد ثبت أن لأولياءِ الله مخاطبات ومكاشفات ، وأفضل هؤلاءِ في هذه الأمة بعد أبي بكر عمر

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣٦٨٧) في المناقب : باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأحمد في « المسند » ٤ / ١٥٤ من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، وهو كما قال .

ابن الخطاب رضي الله عنهما ؛ فإن خير هذه الأُمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر[1] .

وقد ثبت في « الصحيح »[2] تعيين عمر، بأنه محدَّث في هذه الأُمة فأي محدَّث ومخاطب فرض في أُمة محمد ﷺ ، فعمر أَفضل منه ، ومع هذا فكان عمر رضي الله عنه يفعل ما هو الواجب عليه ، فيعرض ما يقع له على ما جاءَ به الرسول ﷺ ، فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائل عمر ، كما نزل القرآن بموافقته غير مرة ، وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك ، كما رجع يوم الحديبية لما كان قد رأى محاربة المشركين ؛ والحديث معروف في « البخاري » وغيره ، فإن النبي ﷺ قد اعتمر سنة ست من الهجرة ، ومعه المسلمون نحو ألف وأربعمائة ، وهم الذين بايعوه تحت الشجرة ، وكان قد صالح المشركين بعد مراجعة جرت بينه وبينهم ، على أن يرجع في ذلك العام ، ويعتمر من العام القابل ، وشرط لهم شروطاً فيها نوع غضاضة على المسلمين في الظاهر ، فشق ذلك على كثير من المسلمين ، وكان الله ورسوله أَعلم

---

(١) روى البخاري ٧ / ١٤ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ ، وأبو داود رقم (٤٦٢٧) و (٤٦٢٨) في السنة : باب في التفضيل ، والترمذي رقم (٣٧٠٧) في المناقب : باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ولفظ البخاري : قال ابن عمر : « كنا نخير بين الناس في زمان رسول الله ﷺ ، نُخَيِّر أبا بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان رضي الله عنهم » .

(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم والترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها . انظر « جامع الأصول » ٨ / ٦١٠ بتحقيقي

وأحكم بما في ذلك من المصلحة ، وكان عمر فيمن كره ذلك حتى قال للنبي ﷺ : يا رسول الله ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : « بلى » ، قال : أفليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : « بلى » ، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ فقال له النبي ﷺ : « إني رسول الله وهو ناصري ، ولست أعصيه » ثم قال : أفلم تكن تحدثنا أنّا نأتي البيت ونطوف به ، قال : « بلى » ، قال : « أقلت لك : إنك تأتيه العام ؟ » قال : لا ، قال : « إنك آتيه ومطوف به » .

فذهب عمر إلى أبي بكر رضي الله عنهما فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ ، ورد عليه أبو بكر مثل جواب النبي ﷺ ، ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبي ﷺ . فكان أبو بكر رضي الله عنه أكمل موافقة لله وللنبي ﷺ من عمر ، وعمر رضي الله عنه رجع عن ذلك ، وقال : فعملت لذلك أعمالا[1] .

وكذلك لما مات النبي ﷺ ، أنكر عمر موته أولاً ، فلما قال أبو بكر : إنه مات ، رجع عمر عن ذلك[2] .

---

(١) رواه البخاري ٥ / ٢٥٤و٢٥٥ في الشروط : باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، في الإسلام من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم عن الصحابة رضي الله عنهم .

(٢) رواه البخاري ٧ / ٢٢ و ٢٣ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً » ؛ وفي الجنائز : باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه ، وفي المغازي : باب مرض النبي ﷺ ووفاته .

وكذلك في قتال مانعي الزكاة قال عمر لأبي بكر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحقها » فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ألم يقل: «إلا بحقها» فإن الزكاة من حقها ، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها . قال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت قد شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعلمت أنه الحق[1] .

ولهذا نظائر تبيّن تقدم أبي بكر على عمر ، مع أن عمر رضي الله عنه محدّث ، فإن مرتبة الصدِّيق فوق مرتبة المحدّث ، لأن الصدِّيق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله ، والمحدّث يأخذ عن قلبه أشياءَ ، وقلبه ليس بمعصوم ، فيحتاج أن يعرضه على ما جاءَ به النبي المعصوم .

---

(١) رواه البخاري ١٣ /٢١٧ في الاعتصام : باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، وفي الزكاة : باب وجوب الزكاة ، وفي استتابة المرتدين : باب قتل من أبى قبول الفرائض ؛ ومسلم رقم (٢٠) في الإيمان : باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، و « الموطأ » ١ /٢٦٩ في الزكاة ، : باب ما جاء في أخذ الصدقات والتشديد فيها ، والترمذي رقم (٢٦١٠) في الإيمان : باب ما جاء أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، وأبو داود رقم (١٥٥٦) في الزكاة في فاتحته ، والنسائي ٥ /١٤ في الزكاة : باب مانع الزكاة ، وابن ماجه رقم (٣٩٢٧) في الفتن : باب الكف عمن قال لا إله إلا الله ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة رضي الله عنهم ، ويناظرهم ويرجع إليهم في بعض الأُمور ، وينازعونه في أشياءَ فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ، ويقرهم على منازعته ، ولا يقول لهم : أنا محدث ملهم مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني ، فأي أحد ادعى ، أو ادعى له أصحابه أنه ولي لله ، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ، ولا يعارضوه ويسلِّموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة ، فهو وهم مخطئون ، ومثل هذا أضل الناس ، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضل منه ، وهو أمير المؤمنين ، وكان المسلمون ينازعونه ويعرضون ما يقوله - وهو وهم - على الكتاب والسنة ، وقد اتفق سلف الأُمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسول الله ﷺ .

وهذا من الفروق بين الأَنبياءِ وغيرهم ، فإن الأَنبياءَ صلوات الله عليهم وسلامه ، يجب لهم الإيمــان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل ، وتجب طاعتهم فيما يأْمرون به ، بخلاف الأَولياءِ ، فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأْمرون به ، ولا الإيمــان بجميع ما يخبرون به ، بل يعرض أَمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة ، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله ، وما خالف الكتاب والسنة كان مردوداً ، وإن كان صاحبه من

أولياءِ الله ، وكان مجتهداً معذوراً فيما قاله ، له أجر على اجتهاده ، ولكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئاً ، وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع ، فإن الله تعالى يقول :﴿ فَاتَّقُوا اللهَ ما ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[التغابن :١٦].

وهذا تفسير قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِه ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

قال ابن مسعود وغيره : حق تقاته : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر . أي بحسب استطاعتكم ، فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، كما قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفساً إِلَّا وُسْعَهَا لهَا مَا كَسَبتْ وَعَلَيْهَا ما ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا أُولئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها ﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الإيمان بما جاءت به الأنبياءُ في غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بالله وَمَا

أُنزِلَ إِلَيْنا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بيْنَ أَحَدٍ مِنهُمْ وَنَحْنُ لَـهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال تعالى : ﴿ آلم * ذلِكَ ٱلْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِـالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّـلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ١ - ٥] .

وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِب وَلٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَٱلْمَلائِكَةِ وَٱلْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وآتَىٰ ٱلْمَالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفي الرِّقَاب وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَىٰ الزكَاة وَٱلْمُوفُونَ بِعهْدِهِمْ إِذا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ في ٱلْبَأْسَآءِ والضراءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُولٰئِكَ الَّذِينَ صَدقُوا وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وهـذا الذي ذكـرته ، من أن أوليـاءَ الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة ، وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة هو مما اتفق عليه أولياءُ الله عز وجل ، ومن خالف في هذا

فليس من أولياءِ الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم ، بل إما أن يكون كافراً ، وإما أن يكون مفرطاً في الجهل .

وهذا كثير في كلام المشايخ ، كقول الشيخ أبي سليمان الداراني : إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم ، فلا أقبلها إلا بشاهدين : الكتاب والسنة .

وقال أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث ، لا يصلح له أن يتكلم في علمنا ، أو قال : لا يقتدى به .

وقال أبو عثمان النيسابوري : من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً ، نطق بالحكمة ، ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً ، نطق بالبدعة ، لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[النور : ٥٤] .

وقال أبو عمر بن نجيد : كل وَجْد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع ، فيظن في شخص أنه ولي لله ، ويظن أن ولي الله يُقبل منه كل ما يقوله ، ويسلِّم إليه كل ما يقوله ويسلِّم إليه كل ما يفعله ، وإن خالف الكتاب والسنة ، فيوافق ذلك الشخص له ، ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع

الخلق تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه، وبين أهل الجنة وأهل النار؛ وبين السعداءِ والأشقياءِ، فمن اتبعه كان من أولياءِ الله المتقين، وجنده المفلحين، وعباده الصالحين، ومن لم يتبعه كان من أعداءِ الله الخاسرين المجرمين، فتجره مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولاً إلى البدعة والضلال، وآخراً إلى الكفر والنفاق؛ ويكون له نصيب من قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتي لَيْتَني لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّني عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَني، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ في النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا وَقَالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونا السَّبِيلا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿ ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسبابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُم حَسَرَاتٍ

عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة : ١٦٥ - ١٦٧] .

وهؤلاءِ مشابهون للنصارى الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ اتَّخَذُوا أَحبَارهُم ورُهْبانَهُم أَرْباباً مِن دُونِ اللهِ وآلمَسِيحَ آبنَ مَرْيمَ وَمَا أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا إلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُون ﴾ [التوبة : ٣١] .

وفي « المسند » وصححه الترمذي[1] عن عدي بن حاتم في تفسيره هذه الآية، لما سأَل النبي ﷺ عنها فقال : ما عبدوهم، فقال النبي ﷺ : « أَحلوا عليهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال ، فأَطاعوهم وكانت هذه عبادتهم إياهم » ولهذا قيل في مثل هؤلاءِ : إنما حرموا الوصول بتضييع الأُصول ، فإن أَصل الأُصول تحقيق الإيمان بما جاءَ به الرسول ﷺ فلا بد من الإيمان بأَن محمداً رسول الله ﷺ إلى جميع الخلق ، إنسهم وجنهم ، عربهم وعجمهم ، علمائهم وعبادهم ،

---

(١) رقم (٣٠٩٤) في التفسير: باب ومن سورة براءة ، وأخرجه ابن جرير رقم (١٦٦٣١) و (١٦٦٣٢) و (١٦٦٣٣) وأورده السيوطي في « الدر المنثور » ٣ / ٢٣٠ وزاد نسبته لابن سعد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبي الشيخ، وابن مردويه والبيهقي في «سننه» وقال الترمذي : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب ، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث .

أقول : لكن في الباب عن حذيفة موقوفاً ، أخرجه الطبري رقم (١٦٦٣٤) ربمايتقوى به .

ملوكهم وسوقتهم ، وأنه لا طريق إلى الله عز وجل لأحد من الخلق إلا بمتابعته باطناً وظاهراً حتى لو أدركه موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياءِ لوجب عليهم اتّباعه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا معكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ٨١ - ٨٢] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق ، لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ على أُمته الميثاق ، لئن بعث محمد وهم أحياءُ ليؤمنن به ولينصرنه وقد قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَىٰ الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ آللهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً * أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ

اللهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوجدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾[النساء: ٦٠ ـ ٦٥] .

وكل من خالف شيئاً مما جاءَ به الرسول ، مقلداً في ذلك لمن يظن أنه ولي لله ، فإنه بنى أمره على أنه ولي الله ، وأن ولي الله لا يخالف في شيء ، ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياءِ الله ، كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنة ، فكيف إذا لم يكن كذلك ؟ ! وتجد كثيراً من هؤلاءِ ؛ عمدتهم في اعتقاد كونه ولياً لله ، أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور ، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة ، مثل أن يشير إلى شخص فيموت ، أو يطير في الهواءِ إلى مكة أو غيرها ، أو يمشي على الماءِ أحيانًا ، أو يملأ إبريقاً من الهواءِ ، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب ، أو يختفي أحياناً عن أعين الناس ، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءَه ، فقضى حاجته ، أو يخبر الناس بما سُرق لهم ، أو بحال غائب لهم أو مريض ، أو نحو ذلك من الأمور ، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي الله ، بل قد اتفق أولياءُ الله ، على أن الرجل لو طار في الهواءِ ، أو مشى على

الماءِ ، لم يغترّ به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه .

وكرامات أولياءِ الله تعالى ، أعظم من هذه الأُمور ، وهذه الأُمور الخارقة للعادة ، وإن كان قد يكون صاحبها ولياً لله ، فقد يكون عدوًّا لله ، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وتكون لأهل البدع ، وتكون من الشياطين ، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيءٌ من هذه الأُمور أنه ولي لله ، بل يعتبر أولياءُ الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دلَّ عليها الكتاب والسنة ، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن ، وبحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الاسلام الظاهرة .

مثال ذلك أن الأُمور المذكورة وأمثالها ، قد توجد في أشخاص ويكون أحدهم لا يتوضأُ ، ولا يصلي الصلوات المكتوبة ، بل يكون ملابساً للنجاسات ، معاشراً للكلاب ، يأوي إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل ، رائحته خبيثة ، لا يتطهر الطهارة الشرعية ، ولا يتنظف وقد قال النبي ﷺ : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جنب ولا كلب[1] » وقال

---

(١) رواه أبو داود رقم (٢٢٧) في الطهارة : باب في الجنب يؤخر الغسل ، ورقم =

[ﷺ] عن هذه الأخلية : « إن هذه الحشوش محتضرة »[1] أي يحضرها الشيطان ،

وقال [ﷺ] : « من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين ، فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم »[2] .

وقال : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً »[3] .

=(٤١٥٢) في اللباس : باب في الصور ، والنسائي ١ /١٤١ في الطهارة : باب في الجنب إذا لم يتوضأ و ٧ /١٨٥ ،في الصيد: باب امتناع الملائكة من دخول بيت فيه كلب ، من حديث علي بن أبي طالب ورواه أحمد في « المسند »بأطول منه ١ /٨٠،وابن حبان رقم (١٤٨٤) « موارد »،والحاكم ١ /١٧١ ، وفي سنده نجي الحضرمي الكوفي لم يوثقه غير ابن حبان ، وباقي رجاله ثقات ، ولأكثره شواهد ، ومع ذلك فقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(١) رواه أبو داود رقم (٦) في الطهارة : باب ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء ، وابن ماجه رقم (٢٩٦) في الطهارة : باب مايقول الرجل إذا دخل الخلاء ، وأحمد في « المسند » ٤ /٣٦٩ و٣٧٣ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه . وإسناده صحيح .

(٢) رواه البخاري ٩ /٤٩٨ في الأطعمة : باب ما يكره من الثوم والبقول ، وفي صفة الصلاة : باب ما جاء في الثوم النيء والبصل والكراث ، وفي الاعتصام : باب الأحكام التي تعرف بالدلائل ، ومسلم رقم (٥٦٤) في المساجد : باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً ، وأبو داود رقم (٣٨٢٢) في الأطعمة : باب في أكل الثوم ، والترمذي رقم (١٨٠٧) في الأطعمة ، باب ما جاء في كراهية أكل الثوم والبصل،والنسائي ٢ /٤٣ في المساجد : باب من يمنع من المسجد من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ورواه أحمد ٢ / ٤٢٩ ومسلم رقم (٥٦٣) من حديث أبي هريرة وأحمد ٣/ ١٢ و ٦١ ومسلم (٥٦٥) من حديث أبي سعيد الخدري وأحمد ٤ / ١٩ من حديث قرة المزني .

(٣) رواه مسلم رقم (١٠١٥) في الزكاة : باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ،والترمذي رقم (٢٩٩٢) في التفسير :باب ومن سورة البقرة،وأحمد في « المسند » ٢ /٣٢٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقال : « إن الله نظيف يحب النظافة »[1] .

وقال : « خمس من الفواسق يقتلن في الحل والحرم : الحية والفأرة والحدأة والكلب العقور »[2] . وفي رواية : « الحية والعقرب » .

وأمر صلوات الله وسلامه عليه بقتل الكلاب[3] .

وقال [ﷺ] : « من اقتنى كلباً لا يغني عنه زرعاً ولا ضرعاً ، نقص من عمله كل يوم قيراط »[4] وقال [ﷺ] :

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٨٠٠) في الأدب : باب ما جاء في النظافة ، من حديث عامر ابن سعد عن أبيه وفي سنده خالد بن الياس، وهو ضعيف وله شاهد بالمعنى بلفظ « طهروا أفنيتكم » .

(٢) رواه البخاري ٤ /٢٩ في الحج : باب ما يقتل المحرم من الدواب ، ومسلم رقم (١١٩٩) في الحج : باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم ، و « الموطأ » ١ /٣٥٦ في الحج : باب ما يقتل المحرم من الدواب ، وأبو داود رقم (١٨٤٦) في المناسك : باب ما يقتل المحرم من الدواب ، والنسائي ٥ /١٨٧- ١٩٠ في الحج : باب ما يقتل المحرم من الدواب : باب قتل الكلب العقور . من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

(٣) رواه مسلم رقم (٢٨٠) في الطهارة : باب حكم ولوغ الكلب ، وأبو داود رقم (٧٤) في الطهارة : باب الوضوء بسؤر الكلب ، والنسائي ١ /١٧٧ من حديث عبد الله ابن مغفل، ثم رخص رسول الله ﷺ في كلب الصيد وكلب الغنم ،وفي رواية للترمذي رقم (١٤٨٦) و (١٤٨٩) « لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها ، فاقتلوا منها كل أسود بهيم » وهو حديث صحيح .

(٤) رواه البخاري ٥ /٦ في الحرث والمزارعة : باب اقتناء الكلب للحرث ، وفي بدء الخلق : باب قول الله تعالى : ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ ، ومسلم رقم (١٥٧٦) في المسافاة : باب الأمر بقتل الكلاب وبيان نسخه ، و«الموطأ» ٢ /٩٦٩ في الاستئذان : باب =

« لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب »[1] .

وقال : « إذا ولغ الكلب في إناءِ أحدكم فليغسله سبع مرات إحداهنَّ بالتراب »[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ

= ما جاء في أمر الكلاب ، والنسائي ٧ /١٨٨ في الصيد : باب الرخصة في إمسك الكلب والماشية ، من حديث سفيان بن أبي زهير الأزدي رضي الله عنه .

(١) رواه مسلم رقم (٢١١٣) في اللباس : باب كراهية الكلب والجرس في السفر ، وأبو داود رقم (٢٥٥٥) في الجهاد : باب في تعليق الأجراس ، والترمذي رقم (١٧٠٣) في الجهاد : باب كراهية الأجراس على الخيل وأحمد في « المسند » ٢ /٢٦٣ و ٣١١ و ٣٢٧ و ٣٤٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري ١ /٢٣٩ و ٢٤٠ في الوضوء : باب إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً ، ومسلم رقم (٢٧٩) في الطهارة : باب حكم ولوغ الكلب ، و « الموطأ » ١ /٣٤ في الطهارة : باب جامع الوضوء ، وأبو داود رقم (٧١) و (٧٢) و (٧٣) في الطهارة : باب الوضوء بسؤر الكلب ، والترمذي رقم (٩١) في الطهارة : باب جاء في سؤر الكلب ، والنسائي ١ /١٧٦ و ١٧٧ في المياه : باب سؤر الكلب ، وابن ماجه رقم (٣٦٣) إلى (٣٦٦) في الطهارة : باب غسل الإناء من ولوغ الكلب ، وأحمد في « المسند » ٢/٢٤٥ و ٢٥٣ و ٢٦٥ و ٢٧١ و ٣١٤ و ٣٦٠ و ٣٩٨ و ٤٢٤ و ٤٢٧ و ٤٨٠ و ٤٨٢ و ٥٠٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦ - ١٥٧] .

فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان ، أو يأوي إلى الحمامات والحشوش ، التي تحضرهاالشياطين، أويأكل الحيات والعقارب والزنابير، وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق ، او يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان ، أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات ، ويتوجه إليها أو يسجد إلى ناحية شيخه ، ولا يخلص الدين لرب العالمين ، أو يلابس الكلاب أو النيران أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة ، أو يأوي إلى المقابر ، ولا سيما إلى مقابر الكفار ، من اليهود والنصارى ، أو المشركين ، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار ، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن ، فهذه علامات أولياءِ الشيطان ، لا علامات أولياءِ الرحمن .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن ، فهو يحب الله ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : لو طهرت قلوبنالما شبعت من كلام الله عزَّ وجل .

وقال ابن مسعود : الذكر ينبت الايمان في القلب ، كما ينبت الماءُ البقل ، والغناءُ ينبت النفاق في القلب ، كما ينبت الماءُ البقل .

وإن كان الرجل خبيراً بحقائق الإيمان الباطنة ، فارقاً بين الأحوال الرحمانية ، والأحوال الشيطانية ، فيكون قد قذف الله في قلبه من نوره ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٨] وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي ما ٱلْكِتَابُ وَلا الإِيمانُ وَلٰكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] فهذا من المؤمنين الذين جاءَ فيهم الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » . قال الترمذي حديث حسن(١) .

وقد تقدم الحديث الصحيح الذي في البخاري وغيره قال فيه : « لا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل ، حتى

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣١٢٥) في التفسير: باب ومن سورة الحجر ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفي سنده عطية العوفي ، وهو ضعيف ، وقال الترمذي : غريب وأورده السيوطي في « الدر المنثور » ٤ / ١٠٣ ، وزاد نسبته لابن جرير وابن ابي حاتم والبخاري في « التاريخ » وابن السني وأبي نعيم معاً في الطب ، وابن مردويه والخطيب ، وهو حديث حسن بشواهده باللفظ والمعنى . انظر « كشف الخفاء » .

أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . [فبي يسمع وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي][1] ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ، ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءَته ، [ولا بد له منه][1] .

فإذا كان العبد من هؤلاءِ فرق بين حال أولياءِ الرحمن وحال أولياءِ الشيطان ، كما يفرق الصيرفي بين الدرهم الجيد والدرهم الزيف ، وكما يفرق من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الرديءِ ، وكما يفرق من يعرف الفروسية بين الشجاع والجبان ، وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق وبين المتنبي الكذاب ، فيفرق بين محمد الصادق الأمين رسول رب العالمين ، وموسى والمسيح وغيرهم ، وبين مسيلمة الكذاب والأسود العنسي ، وطلحة الأسدي ، والحارث الدمشقي ، وباباه الرومي ، وغيرهم من الكذابين ، وكذلك يفرق بين أولياءِ الله المتقين ، وَأولياءِ الشيطان الضالين .

* * *

(١) ما بين [ ] ليس من رواية البخاري . وقد تقدم تخريجه ص ٧ .

فصل

[الحقيقة والشريعة]

والحقيقة حقيقة الدين ، دين رب العالمين : هي ما اتفق عليهاالأنبياءوالمرسلون، وإن كان لكل منهم شرعةومنهاج، فالشرعة : هي الشريعة قال الله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة : ٤٨] وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ ٱلأَمْرِ فاتَّبِعْها وَلا تَتَّبع أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللهُ وَلِي المتَّقِينَ ﴾[الجاثية :١٨-١٩].

والمنهاج : هو الطريق . قال تعالى : ﴿ وأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَآءً غَدقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمنْ يُعرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلكهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾ [الجن : ١٦ - ١٧] .

فالشرعة بمنزلة الشريعة للنهر ، والمنهاج هو الطريق الذي سلك فيه ، والغاية المقصودة هي حقيقة الدين ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وهي حقيقة دين الإسلام ، وهي أن يستسلم العبد لله ربِ العالمين لا يستسلم لغيره ، فمن استسلم لغيره كان مشركاً ، والله ﴿ لَا يَغْفِر أَنْ يُشَرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : ٤٨ و ١١٦] ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته ، كان ممن قال الله فيه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبَادَتي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

ودين الاسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين

والمرسلين . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنهُ ﴾ [آل عمران : ٨٥] عام في كل زمان ومكان .

فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون ، كلهم دينهم الاسلام ، الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له . قال الله تعالى عن نوح : ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ اللهِ فَعَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمرَكُم ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِين ﴾ [يونس : ٧١]

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي ٱلآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِين * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيعْقُوبُ يا بَنيّ إِنَّ اللهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[البقرة:١٣٠-١٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٨٤] .

وقال السحرة : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِين ﴾ [الأعراف : ١٢٦] .

وقال يوسف عليه السلام : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْني

بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

وقالت بلقيس : ﴿ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال الحواريون : ﴿ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢] .

فدين الأنبياءِ واحد ، وإن تنوَّعت شرائعهم ، كما في « الصحيحين » عن النبي ﷺ قال : « إنا معشر الأنبياءِ دِيننا واحد »[١] .

قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتفرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَٱعْمَلُوا

---

(١) رواه المصنف بالمعنى ، وهو جزء من حديث رواه البخاري ٦/٣٥٤ في أحاديث الانبياء : باب قول الله تعالى : ﴿واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها﴾ ، ومسلم رقم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ «الانبياء إخوة لعلات امهاتهم شتى ودينهم واحد» .

صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُم زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون ﴾ [المؤمنون : ٥١ - ٥٣] .

فصل

[الانبياء أفضل من الأولياء]

وقد اتفق سلف الأُمة وأَئمتها ، وسائر أَولياءِ الله تعالى ، على أَن الأَنبياءَ أَفضل من الأَولياءِ الذين ليسوا بأَنبياءَ ، وقد رتب الله عباده السعداءَ المنعم عليهم أَربع مراتب ، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

وفي الحديث : « ما طلعت الشمس ولا غربت على أَحد بعد النبيين والمرسلين أَفضل من أَبي بكر »(١) وأَفضل الأُمم أُمة محمد ﷺ قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبادِنَا ﴾ [فاطر : ٣٢] .

---

(١) رواه عبد بن حميد وأبو نعيم في «الحلية» وابن النجار من طرق عن أبي الدرداء، ورواه الطبراني وغيره من حديث جابر رضي الله عنه، وله شواهد من وجوه أخر ، وهو حديث حسن بشواهده ، وانظر « تاريخ الخلفاء » للسيوطي ص ٤٦ .

وقال النبي ﷺ في الحديث الذي في « المسند » : « أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله »[1] وأفضل أمة محمد ﷺ ، القرن الأول .

وقد ثبت عن النبي ﷺ ، من غير وجه أنه قال : « خير القرون القرن الذي بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » ، وهذا ثابت في « الصحيحين » من غير وجه[2] .

وفي « الصحيحين » أيضاً عنه ﷺ أنه قال : « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده ، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه »[3] .

---

(١) رواه احمد في «المسند» ٥/٣ و ٥، وابن ماجه رقم (٤٢٨٨) في الزهد ، باب صفة أمة محمد ﷺ، والترمذي رقم (٣٠٠٤) في تفسير سورة آل عمران، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وهو كما قال، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٢) رواه البخاري ٥/١٩٠ في الشهادات : باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد ، وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب فضائل اصحاب النبي ﷺ ، وفي الرقاق : باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ، ومسلم رقم (٢٥٣٥) في فضائل الصحابة ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم، والترمذي رقم (٢٢٢٢) في الفتن : باب ما جاء في القرن الثالث ورقم (٢٣٠٣) في الشهادات : باب خير القرون، وأبو داود رقم (٤٦٥٧) في السنة : باب في فضل أصحاب رسول الله ﷺ ، والنسائي ١٧/٧ و ١٨ في الأيمان والنذور: باب الوفاء بالنذر ، وأحمد في «المسند» ٤/٤٢٦ و٤٢٧ و٤٣٦ و ٤٤٠ من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري ٧ /٢٧ و٢٨ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً » ، ومسلم رقم (٢٥٤١) في فضائل الصحابة : باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ، وأبو داود رقم (٤٦٥٨) في السنة : باب النهي عن سب =

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، أفضل من سائر الصحابة .

قال تعالى : ﴿ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ ٱلَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد : ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ والسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِين وَٱلْأَنْصَارِ وَٱلَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عنْه ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، والسابقون الأولون : الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، والمراد بالفتح : صلح الحديبية فإنه كان أول فتح مكة ، وفيه أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخر ﴾ [الفتح : ١ ـ ٢] فقالوا : يا رسول الله أَوَ فتح هو؟ قال : « نعم »[١] .

وأفضل السابقين الأولين ، الخلفاءُ الأربعة ، وأفضلهم أبو بكر ثم عمر، وهذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم

= أصحاب النبي ﷺ ، والترمذي رقم (٣٨٦٠) في المناقب : باب فيمن سب أصحاب النبي ﷺ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ورواه عن أبي هريرة ابن ماجه رقم (١٦١) في المقدمة : باب فضل أهل بدر .

(١) رواه أبو داود رقم (٢٧٣٦) في الجهاد : باب فيمن أسهم له سهماً وأحمد في «المسند» ٣ / ٤٢٠ من حديث مجمع بن جارية و٣ / ٤٨٦ من حديث سهل بن حنيف وهو حديث حسن .

بإحسان وأئمة الأُمة وجماهيرها ، وقد دلَّت على ذلك دلائل ، بسطناها في « منهاج أهل السنة النبوية في نقض كلام أهل الشيعة والقدرية » .

وبالجملة اتفقت طوائف السنة والشيعة ، على أَن أَفضل هذه الأُمة بعد نبيها واحد من الخلفاءِ ، ولا يكون من بعد الصحابة أَفضل من الصحابة . وأَفضل أَولياءِ الله تعالى ، أَعظمهم معرفة بما جاءَ به الرسول واتباعاً له ، كالصحابة الذين هم أَكمل الأُمة في معرفة دينه واتباعه ، وأَبو بكر الصدِّيق أكمل معرفة بما جاءَ به وعملا به ، فهو أَفضل أَولياءِ الله ، إذ كانت أُمة محمد ﷺ أَفضل الأُمم ، وأَفضلها أَصحاب محمد ﷺ وأَفضلهم أَبو بكر رضي الله عنه .

وقد ظن طائفة غالطة ، أَن خاتم الأَولياءِ أَفضل الأَولياءِ ، قياساً على خاتم الأَنبياءِ ، ولم يتكلم أَحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأَولياءِ ، إلا محمد بن علي الحكيم الترمذي ، فإنه صنف مصنفاً غلط فيه في مواضع ، ثم صار طائفة من المتأَخرين يزعم كل واحد منهم أَنه خاتم الأَولياءِ ، ومنهم من يدَّعي أَن خاتم الأَولياءِ أَفضل من خاتم الأَنبياءِ من جهة العلم بالله ، وأَن الأَنبياءَ يستفيدون العلم بالله من جهته ، كما زعم ذلك ابن عربي صاحب كتاب « الفتوحات المكية » وكتاب « الفصوص » ، فخالف الشرع والعقل ، مع مخالفة جميع أَنبياءِ

الله تعالى وأوليائه ، كما يقال لمن قال : فخرَّ عليهم السقف من تحتهم : لا عقل ولا قرآن .

وذلك أن الأنبياءَ أفضل في الزمان من أولياءِ هذه الأُمة ، والأنبياءُ عليهم أفضل الصلاة والسلام ، أفضل من الأولياءِ ، فكيف الأنبياءُ كلهم ؟ ! والأولياءُ إنما يستفيدون معرفة الله ممن يأتي بعدهم ، ويدَّعي أنه خاتم الأولياءِ ، وليس آخر الأولياءِ أفضلهم ، كما أن آخر الأنبياءِ أفضلهم ، فإن فضل محمد ﷺ ثبت بالنصوص الدالة على ذلك ، كقوله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر »[1] وقوله : « آتي باب الجنة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت ، أن لا أفتح لأحد قبلك »[2] .

وليلة المعراج ، رفع الله درجته فوق الأنبياءِ كلهم ، فكان أحقهم بقوله تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُم دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة : ٢٥٣] إلى غير ذلك من الدلائل ، كل منهم يأتيه الوحي من الله ،

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣١٤٧) في التفسير : باب ومن سورة بني اسرائيل ، ورقم (٣٦١٨) في المناقب : باب رقم ٣ وأحمد في « المسند » ٣ / ٢ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ، وقال الترمذي هذا حديث حسن وهو كما قال .

(٢) تقدم تخريجه ص ١٢ .

لا سيما محمد ﷺ ، لم يكن في نبوَّته محتاجاً إلى غيره، فلم تحتج شريعته إلى سابق ، ولا إلى لاحق ، بخلاف المسيح ، أحالهم في أكثر الشريعة على التوراة ، وجاءَ المسيح فكملها ، ولهذا كان النصارى محتاجين إلى النبوات المتقدمة على المسيح ، كالتوراة والزبور ، وتمام الأربع وعشرين نبوة ، وكان الأمم قبلنا محتاجين إلى محدّثين ، بخلاف أمة محمد ﷺ ، فإن الله أغناهم به ، فلم يحتاجوا معه إلى نبي ، ولا إلى محدّث ، بل جمع له من الفضائل والمعارف والأعمال الصالحة ما فرَّقه في غيره من الأنبياءِ ، فكان ما فضله الله بما به أنزله إليه ، وأرسله إليه ، لا بتوسط بشر .

وهذا بخلاف الأولياءِ ، فإن كل من بلغه رسالة محمد ﷺ ، لا يكون ولياً لله إلا باتباع محمد ﷺ ، وكل ما حصل له من الهدى ودين الحق ، هو بتوسط محمد ﷺ ، وكذلك من بلغه رسالة رسول إليه ، لا يكون ولياً لله إلا إذا اتبع ذلك الرسول الذي أرسل إليه .

ومن ادعى أن من الأولياءِ الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ ، من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد ، فهذا كافر ملحد ، وإذا قال : أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر ، دون علم الباطن ، أو في علم الشريعة ، دون علم الحقيقة ، فهو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا : إن محمداً رسول إلى

الأُميين دون أَهل الكتاب ، فإِن أُولئك آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض ، فكانوا كفاراً بذلك ، وكذلك هذا الذي يقول : إِن محمداً بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ما جاءَ به ، وكفر ببعض ، فهو كافر ، وهو أَكفر من أُولئك ، لأَن علم الباطن ، الذي هو علم إِيمان القلوب ومعارفها وأَحوالها ، هو علم بحقائق الإِيمان الباطنة ، وهذا أَشرف من العلم بمجرد أَعمال الاسلام الظاهرة .

فإِذا ادَّعى المدَّعي ، أَن محمداً ﷺ ، إِنما علم هذه الأُمور الظاهرة ، دون حقائق الايمان ، وأَنه لا يأْخذ هذه الحقائق عن الكتاب والسنة ، فقد ادعى أَن بعض الذي آمن به مما جاءَ به الرسول ، دون البعض الآخر ، وهذا شر ممن يقول : أُوْمِن ببعض ، وأَكفر ببعض ، لا يدَّعي أَن هذا البعض الذي آمن به ، أَدنى القسمين .

وهؤلاء الملاحدة يدعون أَن الولاية أَفضل من النبوة ، ويلبِّسون على الناس ، فيقولون : ولايته أَفضل من نبوته ، وينشدون :

مقام النبوة في برزخ
فويق الرسول ودون الولي

ويقولون : نحن شاركناه في ولايته التي هي أَعظم من

رسالته ، وهذا من أعظم ضلالهم ، فإن ولاية محمد لم يماثله فيها أحد ، لا إبراهيم ولا موسى ، فضلاً عن إيمان ثلة فيها هؤلاءِ الملحدون .

وكل رسول نبي ولي ، فالرسول نبي ولي ، ورسالته متضمنة لنبوته ، ونبوته متضمنة لولايته ، وإذا قدروا مجرد إنباءِ الله إياه بدون ولايته لله ، فهذا تقدير ممتنع ، فإنه حال إنبائه إياه ، ممتنع أن يكون إلا ولياً لله ، ولا تكون مجردة عن ولايته ، ولو قدرت مجردة ، لم يكن أحد مماثلاً للرسول في ولايته .

وهؤلاءِ قد يقولون كما يقول صاحب « الفصوص» ابن عربي: إنهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول ، وذلك أنهم اعتقدوا عقيدة المتفلسفة ، ثم أخرجوها في قالب المكاشفة ، وذلك أن المتفلسفة الذين قالوا : إن الأفلاك قديمة أزلية ، لها علة تتشبه بها ، كما يقوله أرسطو وأتباعه : أولها موجب بذاته ، كما يقوله متأخروهم ، كابن سينا ، وأمثاله ، ولا يقولون : إنها لربٍ خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ولا خلق الأشياءَ بمشيئته وقدرته ، ولا يعلم الجزئيات ، بل إما أن ينكروا علمه مطلقاً ، كقول أرسطو ، أو يقولوا : إنما يعلم في الأمور المتغيرة كلياتها ، كما يقول ابن سينا ،

وحقيقة هذا القول ، إنكار علمه بها ، فان كل موجود في الخارج فهو معين جزئي الأفلاك ، كل معين منها جزئي ، وكذلك جميع الأعيان وصفاتها وأفعالها ؛ فمن لم يعلم إلا الكليات ، لم يعلم شيئاً من الموجودات والكليات إنما توجد كليات في الأذهان ، لا في الأعيان .

والكلام على هؤلاءِ مبسوط في موضع آخر ، في رد تعارض العقل والنقل وغيره ، فإن كفر هؤلاءِ أعظم من كفر اليهود والنصارى ، بل ومشركي العرب ، فإن جميع هؤلاءِ يقولون : إن الله خلق السماوات والأرض وإنه خلق المخلوقات بمشيئته وقدرته .

وأرسطو ونحوه من المتفلسفة واليونان ، كانوا يعبدون الكواكب والأصنام ، وهم يعرفون الملائكة والأنبياءَ ، وليس في كتب أرسطو ذكر شيء من ذلك ، وإنما غالب علوم القوم الأمور الطبيعية .

وأما الأمور الإلهية ، فكل منهم فيها قليل الصواب ، كثير الخطأ ، واليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أعلم بالهيئات منهم بكثير ، ولكن متأخروهم كابن سينا [وغيره] أرادوا أن يلفقوا بين كلام أولئك وبين ما جاءَت به الرسل ، فأخذوا أشياءَ من أصول الجهمية والمعتزلة ، وركبوا مذهباً قديعتزى إليه متفلسفة أهل الملل ، وفيه من الفساد والتناقض ما قد

نبهنا على بعضه في غير هذا الموضع .

وهؤلاءِ لما رأوا أمر الرسل ، كموسى وعيسى ومحمد ﷺ قد بهر العالم ، واعترفوا بالناموس الذي بعث به محمد ﷺ ، أعظم ناموس طرق العالم ، ووجدوا الأنبياءَ قد ذكروا الملائكة والجن ، أرادوا أن يجمعوا بين ذلك ، وبين أقوال سلفهم اليونان ، الذين هم أبعد الخلق عن معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأولئك قد أثبتوا عقولاً عشرة ، يسمونها : المجردات ، والمفارقات .

وأصل ذلك مأخوذ من مفارقة النفس للبدن ، وسموا تلك : المفارقات لمفارقتها المادة ، وتجرّدها عنها . وأثبتوا الأفلاك ، لكل فلك نفساً ، وأكثرهم جعلوها أعراضاً ، وبعضهم جعلها جواهر .

وهذه المجردات التي أثبتوها ، ترجع عند التحقيق إلى أمور موجودة في الأذهان ، لا في الأعيان كما أثبت أصحاب فيثاغورس أعداداً مجردة ، و كما أثبت أصحاب أفلاطون الأمثال الأفلاطونية المجردة ، أثبتوا هيولى مجردة عن الصورة ، ومدة وخلاءً مجردين ، وقد اعترف حذّاقهم ، بأن ذلك إنما يتحقق في الأذهان ، لا في الأعيان ؛ فلما أراد هؤلاءِ المتأخرون منهم ، كابن سينا ، أن يثبت أمر النبوات

على أصولهم الفاسدة ، زعموا أن النبوة لها خصائص ثلاثة ، من اتصف بها فهو نبي :

١ ـ أن تكون له قوة علمية ، يسمونها القوة القدسية ، ينال بها العلم بلا تعلم .

٢ ـ وأن يكون له قوة تخيلية ، تخيل له ما يعقل في نفسه ، بحيث يرى في نفسه صوراً ، أو يسمع في نفسه أصواتاً ، كما يراه النائم ويسمعه ، ولا يكون لها وجود في الخارج ، وزعموا أن تلك الصور هي ملائكة الله ، وتلك الأصوات هي كلام الله تعالى .

٣ ـ وأن يكون له قوة فعَّالة ، يؤثر بها في هيولى العالم ، وجعلوا معجزات الأنبياءَ وكرامات الأولياءِ ، وخوارق السحرة ، هي من قوى الأنفس ، فأقروا من ذلك بما يوافق أصولهم ، من قلب العصا حية دون انشقاق القمر ونحو ذلك ، فإنهم ينكرون وجود هذا .

وقد بسطنا الكلام على هؤلاءِ في مواضع ، وبينَّا أن كلامهم هذا أفسد الكلام ، وأن هذا الذي جعلوه من خصائص النبي تحصَّل ما هو أعظم منه لآحاد العامة ، ولأتباع الأنبياءِ ، وأن الملائكة التي أخبرت بها الرسل ، أحياء ناطقون أعظم مخلوقات الله ، وهم كثيرون ، كما قال

تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] وليسوا عشرة ، وليسوا أعراضاً ، لا سيما وهؤلاءِ يزعمون أن الصادر الأول هو العقل الأول ، وعنه صدر كل ما ما دونه ، والعقل الفعَّال العاشر ، ربّ كل ما تحت فلك القمر .

وهذا كله يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل ، فليس أحد من الملائكة مبدع لكل ما سوى الله . وهؤلاءِ يزعمون أن العقل المذكور في حديث يروى : « إن أول ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل ، فأقبل ، فقال له : أدبر ، فأدبر ، فقال : وعزَّتي ما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منك ، فبك آخذ ، وبك أعطي ، ولك الثواب وعليك العقاب » ويسمونه أيضاً القلم لما روي « إن أول ما خلق الله القلم » الحديث رواه الترمذي[1] .

والحديث الذي ذكروه في العقل كذب موضوع عند أهل المعرفة بالحديث ، كما ذكر ذلك أبو حاتم البستي ، والدارقطني ، وابن الجوزي ، وغيرهم . وليس في شيء من دواوين الحديث التي يعتمد عليها . ومع هذا فلفظه لو كان ثابتاً حجة عليهم ، فإن لفظة « أول ما خلق الله تعالى العقل »

(١) رواه أبو داود رقم (٤٧٠٠) في السنة : باب القدر ، والترمذي رقم (٢١٥٦) في القدر : باب رقم ١٧ ، ورواه أيضاً أحمد في « المسند » ٥ /٣١٧ من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح .

قال : ـ ويروى ـ « لما خلق الله العقل قال له . . »[1] ، فمعنى الحديث : أنه خاطبه في أول أوقات خلقه ، وليس معناه أنه أول المخلوقات و « أول » منصوب على الظرف كما في اللفظ الآخر « لما » وتمام الحديث « ما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منك » فهذا يقتضي أنه خلق قبل غيره ، ثم قال : « فبك آخذ ، وبك أعطي ، ولك الثواب ، وعليك العقاب » فذكر أربعة أنواع من الأعراض وعندهم أن جميع جواهر العالم العلوي والسفلي صدر عن ذلك العقل . فأين هذا من هذا ؟

وسبب غلطهم أن لفظ العقل في لغة المسلمين ليس هو لفظ العقل في لغة هؤلاءِ اليونان ، فإن العقل في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلاً ، كما في القرآن ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[تبارك :١٠] ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤] ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الحج : ٤٦] ويراد بالعقل الغريزة التي جعلها الله تعالى في الإنسان يعقل بها .

وأما أولئك ، فالعقل عندهم جوهر قائم بنفسه كالعاقل ،

---

(١) وقد استقصى طرق هذا الحديث الشيخ مرتضى الزبيدي في « شرح الإحياء » .

وليس هذا مطابقاً للغة الرسل والقرآن ، وعالم الخلق عندهم كما يذكره أبو حامد عالم الأجسام : العقل والنفوس ، فيسميها عالم الأمر ، وقد يسمي « العقل » : عالم الجبروت و « النفوس » : عالم الملكوت ، و « الأجسام » : عالم الملك ، ويظن من لم يعرف لغة الرسل ولم يعرف معنى الكتاب والسنة أن ما في الكتاب والسنة من ذكر الملك والملكوت والجبروت موافق لهذا ، وليس الأمر كذلك .

وهؤلاءِ يلبسون على المسلمين تلبيساً كثيراً كإطلاقهم أن الفلك محدث ، أي معلول ، مع أنه قديم عندهم ، والمحدث لا يكون إلا مسبوقاً بالعدم ، ليس في لغة العرب ولا في لغة أحد أنه يسمى القديم الأزلي : محدثاً ، والله قد أخبر أنه خالق كل شيء . وكل مخلوق فهو محدث ، وكل محدث كائن بعد أن لم يكن ، لكن ناظرهم أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة مناظرة قاصرة لم يعرفوا بها ما أخبر به الرسول ، ولا أحكموا فيها قضايا العقول ، فلا للاسلام نصروا ، ولا للأعداءِ كسروا ، وشاركوا أولئك في بعض قضاياهم الفاسدة ، ونازعوهم في بعض المعقولات الصحيحة فصار قصور هؤلاءِ في العلوم السمعية والعقلية من أسباب قوة ضلال أولئك ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

وهؤلاءِ المتفلسفة قد يجعلون جبريل هو الخيال الذي يتشكل في نفس النبي ﷺ ، والخيال تابع للعقل ، فجاءَ الملاحدة الذين شاركوا هؤلاءِ الملاحدة المتفلسفة وزعموا أنهم أولياءُ الله ، وأن أولياءَ الله أفضل من أنبياءِ الله ، وأنهم يأخذون عن الله بلا واسطة ، كابن عربي صاحب « الفتوحات » و « الفصوص » . فقال : إنه يأخذ من المعدن الذي أخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول ، والمعدن عنده هو العقل ، والملك هو الخيال ، والخيال تابع للعقل ، وهو بزعمه يأخذ عن الذي هو أصل الخيال ، والرسول يأخذ عن الخيال ، فلهذا صار عند نفسه فوق النبي ، ولو كان خاصة النبي ما ذكروه ، ولم يكن هو من جنسه ، فضلاً عن أن يكون فوقه ، فكيف وما ذكروه يحصل لآحاد المؤمنين ؟ ! والنبوة أمر وراءَ ذلك ، فإن ابن عربي وأمثاله وإن ادعوا أنهم من الصوفية ، فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة ، ليسوا من صوفية أهل العلم ، فضلاً عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة ، كالفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والجنيد ابن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري ، وأمثالهم رضوان الله عليهم أجمعين ، والله سبحانه وتعالى قد وصف الملائكة في كتابه بصفات تباين قول هؤلاءِ ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحمٰنُ وَلداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ

بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأمرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ولا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جهَنَّم كَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمين ﴾ [الأنبياء : ٢٦ - ٢٩]

وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماوَاتِ لَا تُغْني شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم : ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا ٱلَّذِينَ زَعمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاواتِ وَلا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيها مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : ٢٢ - ٢٣] .

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ في السَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرونَ عنْ عِبَادتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٩ - ٢٠] .

وقد أخبر أن الملائكة جاءَت إبراهيم عليه السلام في صورة البشر ، وأن الملك تمثل لمريم بشراً سوياً ، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي ، وفي صورة أعرابي ، ويراهم الناس كذلك .

وقد وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بأنه ذو قوة

﴿ عِند ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِين * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ٢٠ ـ ٢١] . وأن محمداً ﷺ ﴿ رَآهُ بِالأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير : ٢٣] ووصفه بأنه ﴿ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتوىٰ * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعلىٰ * ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَى إِلَىٰ عَبْدِهِ ما أَوْحىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهىٰ * عِنْدَها جَنَّةُ ٱلْمَأْوىٰ * إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آياتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرى ﴾ [النجم : ٥ ـ ١٨] .

وقد ثبت في « الصحيحين »(١) عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ أنه لم ير جبريل في صورته التي خلق عليها غير مرتين ، يعني المرة الأولى بالأفق الأعلى ، والنزلة الأخرى عند سدرة المنتهى . ووصف جبريل عليه السلام في موضع آخر بأنه الروح الأمين ، وأنه روح القدس ، إلى غير ذلك من الصفات التي تبين أنه من أعظم مخلوقات الله تعالى الأحياءِ العقلاءِ ، وأنه جوهر قائم بنفسه ليس خيالاً في نفس النبي ، كما زعم هؤلاءِ الملاحدة المتفلسفة ، والمدَّعون ولاية الله وأنهم أعلم من الأنبياءِ .

---

(١) رواه البخاري في تفسير سورة النجم، ومسلم رقم (١٧٧) في الإيمان : باب قوله تعالى ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ .

وغاية حقيقة هؤلاءِ إنكار أُصول الإيمان ، بأن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وحقيقة أمرهم جحد الخالق ، فإنهم جعلوا وجود المخلوق هو وجود الخالق ، وقالوا : الوجود واحد ، ولم يميزوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع ، فإن الموجودات تشترك في مسمى الوجود ، كما تشترك الأناسي في مسمى الانسان ، والحيوانات في مسمى الحيوان . ولكن هذا المشترك الكلي لا يكون مشتركاً كلياً إلا في الذهن ، وإلا فالحيوانية القائمة بهذا الانسان ليست هي الحيوانية القائمة بالفرس ، ووجود السماوات ليس هو بعينه وجود الانسان ، فوجود الخالق جل جلاله ليس هو كوجود مخلوقاته .

وحقيقة قولهم ، قول فرعون الذي عطل الصانع ، فإنه لم يكن منكراً هذا الموجود والمشهود ، لكن زعم أنه موجود بنفسه ، لا صانع له ، وهؤلاءِ وافقوه في ذلك ، لكن زعموا بأنه هو الله ، فكانوا أضل منه ، وإن كان قوله هذا هو أظهر فساداً منهم ، ولهذا جعلوا عُبَّادالأصنام ما عبدوا إلا الله ، وقالوا : لما كان فرعون في منصب التحكم صاحب السيف ـ وإن جاز في العرف الناموس ـ لذلك قال : أنا ربكم الأعلى ـ أي وإن كان الكل أرباباً بنسبةٍ ما ، فأنا الأعلى منكم بما أُعطيته في الظاهر من الحكم فيكم .

قالوا : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله ، أقروا له بذلك وقالوا : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ ﴾ [طه : ٧٢] . قالوا : فصح قول فرعون : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] .

وكان فرعون عين الحق ، ثم أنكروا حقيقة اليوم الآخر ، فجعلوا أهل النار يتنعَّمون كما يتنعم أهل الجنة ، فصاروا كافرين بالله واليوم الآخر ، وبملائكته وكتبه ورسله ، مع دعواهم أنهم خلاصة خاصة الخاصة من أهل ولاية الله ، وأنهم أفضل من الأنبياءِ، وأن الأنبياءَ إنما يعرفون الله من مشكاتهم .

وليس هذا موضع بسط إلحاد هؤلاءِ، ولكن لما كان الكلام في أولياءِ الله ، والفرق بين أولياءِ الرحمن وأولياءِ الشيطان ، وكان هؤلاءِ من أعظم الناس ادعاءً لولاية الله ، وهم أعظم الناس ولاية للشيطان ، نبهنا على ذلك ، ولهذا عامة كلامهم ، إنما هو في الحالات الشيطانية ، ويقولون ما قاله صاحب « الفتوحات » (باب أرض الحقيقة) ويقولون : هي أرض الخيال .

فتعرف بأن الحقيقة التي يتكلم فيها هي خيال ، ومحل تصرُّف الشيطان ، فإن الشيطان يخيل للانسان الأمور بخلاف ما هي .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمشرِقَين فَبِئسَ ٱلْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ ٱلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٦ - ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَد ضَلَّ ضَلالاً بَعيداً ﴾ إلى قوله :﴿ يَعِدُهُم ويُمنّيهِم وَمَا يعِدهم الشَّيْطَانُ إِلَّا غُـروراً ﴾ [النساء : ١١٦ - ١٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[ابراهيم:٢٢]

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم وقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌلَكُمْ فَلَمَّا تراءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال : ٤٨] .

وقد روي عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح : أنه رأى جبريل يزع الملائكة[١] ، والشياطين إذا رأت ملائكة الله التي يؤيد بها عباده هربت منهم ، والله يؤيد عباده المؤمنين بملائكته .

قال تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ أَنِّي معكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال : ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٤٠]

وقال تعالى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ

---

(١) روى مالك في « الموطأ » ١ /٤٢٢ في الحج : باب جامع الحج ، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن رسول الله ﷺ قال : « وما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ، ولا أحقر ، ولا أغيظ منه في يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما أري يوم بدر » . قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله !؟ قال : « أما إنه قد رأى جبريل يزرع الملائكة » أي يصفهم للقتال. وهو حديث مرسل .

مِنَ ٱلْملائِكَةِ مُسَوِّمين ﴾ [آل عمران : ١٢٤ ـ ١٢٥] .

وهؤلاءِ تأْتيهم أَرواح تخاطبهم وتتمثل لهم ، وهي جن وشياطين ، فيظنونها ملائكة ، كالأَرواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والأَصنام .

وكان من أول ما ظهر من هؤلاءِ في الاسلام : المختار ابن أَبي عبيد الذي أَخبر به النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في « صحيحه » عن النبي ﷺ أَنه قال : « سيكون في ثقيف كذاب ومبير »[1] وكان الكذاب : المختار ابن أَبي عبيد ، والمبير : الحجاج بن يوسف فقيل لابن عمر وابن عباس إن المختار يزعم أَنه ينزل إليه ، فقالا : صدق قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٢٢١ ـ ٢٢٢] .

وقال الآخر : وقيل له : إن المختار يزعم أَنه يوحى إليه ؛ فقال : قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجادِلُوكمْ ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

وهذه الأَرواح الشيطانية ؛ هي الروح الذي يزعم صاحب « الفتوحات » أَنه أُلقي إليه ذلك الكتاب ، ولهذا يذكر أَنواعاً

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٥٤٥) في فضائل الصحابة : باب ذكر كذاب ثقيف ومبيرها ، وأحمد في « المسند » ٢ / ٢٦ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

من الخلوات بطعام معين ، وشيء معين ، وهذه مما تفتح لصاحبها اتصالاً بالجن والشياطين ، فيظنون ذلك من كرامات الأولياءِ ، وإِنما هو من الأَحوال الشيطانية ، وأَعـرف من هؤلاءِ عدداً ، ومنهم من كان يحمل في الهواءِ إِلى مكان بعيد ويعود ، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق ، تسرقه الشياطين وتأْتيه به ، ومنهم من كانت تدله على السرقات بجعل يحصل له من الناس أَو لعطاء يعطونه إِذا دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك .

ولما كانت أَحوال هؤلاءِ شيطانية ؛ كانوا مناقضين للرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ، كما يوجد في كـلام صاحب « الفتوحات المكية » و « الفصوص » وأَشباه ذلك يمدح الكفار ، مثـل قوم نـوح وهود وفـرعون وغيـرهـم ، وينتقص الأَنبياءَ ، كنوح وإِبراهيم وموسى وهارون ، ويذم شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين ، كالجنيد بن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري وأَمثالهما . ويمـدح المذمومين عند المسلمين ، كالحلاج ونحوه ؛ كما ذكره في تجلياته الخيالية الشيطانية ، فإِن الجنيد ـ قدس الله روحه ـ كان من أَئمة الهدى ، فسئل عن التوحيد فقال : التوحيد إِفراد الحدوث عن القدم ، فبين أَن التوحيد أَن تميز بين القديم والمحدث ، وبين الخالق والمخلوق .

وصاحب « الفصوص » أنكر هذا، وقال في مخاطبته الخيالية الشيطانية له : يا جنيد ! هل يميز بين المحدث والقديم إلا من يكون غيرهما ؟ فخطأ الجنيد في قوله : إفراد الحدوث عن القدم ، لأن قوله هو : إن وجود المحدث هو عين وجود القديم ، كما قاله في « فصوصه » : ومن أسمائه الحسنى : « العلي» على من ؟ وما ثمَّ إلا هو . وعن ماذا ؟ وما هو إلا هو، فعُلُوُّه لنفسه وهو عين الموجودات ، فالمسمى محدثات ، هي العلية لذاتها ، وليست إلا هو . . . إلى أن قال :

هو عين ما بطن ، وهو عين ما ظهر ، وما ثمَّ من يراه غيره ، وما ثم من ينطق عنه سواه ، وهو المسمى أبو سعيد الخرَّاز ، وغير ذلك من الأسماءِ المحدثات .

فيقال لهذا الملحد : من شرط المميز بين الشيئين بالعلم والقول أن يكون ثالثاً غيرهما ، فإن كل واحد من الناس يميز بين نفسه وغيره ، وليس هو ثالثاً ، فالعبد يعرفه أنه عبد ، ويميز بين نفسه وبين خالقه ، والخالق جل جلاله يميز بين نفسه وبين مخلوقاته ، ويعلم أنه ربهم ، وأنهم عباده ، كما نطق بذلك القرآن في غير موضع ، والاستشهاد بالقرآن عند المؤمنين الذين يقرون به باطناً وظاهراً .

وأما هؤلاءِ الملاحدة فيزعمون ما كان يزعمه التلمساني

منهم ؛ وهو أحذقهم في اتحادهم - لما قرىء عليه « الفصوص » فقيل له : القرآن يخالف « فصوصكم » فقال : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد من كلامنا . فقيل له : فإذا كان الوجود واحداً ، فلِمَ كانت الزوجة حلالاً والأُخت حراماً ؟ فقال : الكل عندنا حلال ، ولكن هؤلاءِ المحجوبون قالوا : حرام ، فقلنا : حرام عليكم .

وهذا مع كفره العظيم متناقض ظاهراً ، فإن الوجود إذا كان واحداً ، فمنِ المحجوب ومَنِ ٱلْحاجب ؟ ولهذا قال شيوخهم لمريده : من قال لك : إن في الكون سوى الله فقد كذب . فقال له مريده : فمن هو الذي يكذب ؟ وقالوا لآخر : هذه مظاهر . فقال لهم : المظاهر غير المظاهر ، أم هي ؟ فإن كانت غيرها فقد قلتم بالنسبة ، وإن كانت إياها فلا فرق .

وقد بسطنا الكلام على كشف أَسرار هؤلاءِ في موضع آخر ؛ وبينَّا حقيقة قول كل واحد منهم ، وإن صاحب « الفصوص » يقول : المعدوم شيءٌ ، ووجود الحق فاض عليهما ، فيفرق بين الوجود والثبوت .

والمعتزلة الذين قالوا : المعدوم شيءٌ ثابت في الخارج مع ضلالهم خير منه ، فإن أُولئك قالوا : إن الرب خلق لهذه الأَشياءِ الثابتة في العدم وجوداً ليس هو وجود الرب ، وهذا زعم أَن عين وجود الرب فاض عليهما ، فليس عنده وجود

مخلوق مباين لوجود الخالق ، وصاحبه الدر القونوي يفرق بين المطلق والمعين ، لأنه كان أقرب إلى الفلسفة ، فلم يقر بأن المعدوم شيءٌ ، لكن جعل الحق هو الوجود المطلق ، وصنف « مفتاح غيب الجمع والوجود » .

وهذا القول أُدخل في تعطيل الخالق وعدمه ، فإن المطلق بشرط الإطلاق ، وهو الكلي العقلي ، لا يكون إلا في الأذهان لا في الأعيان ، والمطلق لا بشرط ، وهو الكلي الطبيعي . وإن قيل : إنه موجود في الخارج ، فلا يوجد في الخارج إلا معيناً ، وهو جزءٌ من المعين عند من يقول بثبوته في الخارج ، فيلزم أن يكون وجود الرب ، إما منتفياً في الخارج ، وإما أن يكون جزءاً من وجود المخلوقات ، وإما أن يكون عين وجود المخلوقات . وهو يخلق الجزءَ الكل أم يخلق الشيءَ نفسه ؟ أم العدم يخلق الوجود ؟ أو يكون بعض الشيءِ خالقاً لجميعه ؟

وهؤلاءِ يفرون من لفظ الحلول لأنه يقتضي حالاً ومحلاً ، ومن لفظ الاتحاد ، لأنه يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر ، وعندهم الوجود واحد ويقولون : النصارى إنما كفروا لما خصصوا المسيح بأنه هو الله ، ولو عمموا لما كفروا .

وكذلك يقولون في عباد الأصنام : إنما أخطؤوا لما عبدوا بعض المظاهر دون بعض ، فلو عبدوا الجميع لما أخطؤوا

عندهم ، والعارف المحقق عندهم لا يضره عبادة الأصنام .

وهذا مع ما فيه من الكفر العظيم ، ففيه ما يلزمهم دائماً من التناقض لأنه يقال لهم : فمن المخطيءُ ؟ لكنهم يقولون : إن الرب هو الموصوف بجميع النقائص التي يوصف بها المخلوق ، ويقولون : إن المخلوقات توصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق ويقولون ما قاله صاحب « الفصوص » : فالعلي لنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستوعب به جميع النعوت الوجودية والنسب العدمية ، سواءٌ كانت محمودة عرفاً أو عقلاً أو شرعاً ، أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً ، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة .

وهم مع كفرهم هذا لا يندفع عنهم التناقض ، فإنه معلوم بالحس والعقل أن هذا ليس هو ذاك ، وهؤلاءِ يقولون ما كان يقوله التلمساني إنه ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل . ويقولون : من أراد التحقيق ـ يعني تحقيقهم ـ فليترك العقل والشرع .

وقد قلت لمن خاطبته منهم : ومعلوم أن كشف الأنبياءِ أعظم وأتم من كشف غيرهم ، وخبرهم أصدق من خبر غيرهم ، والأنبياءُ صلوات الله وسلامه عليهم يخبرون بما تعجز عقول الناس عن معرفته لا بما يعرف الناس بعقولهم أنه

ممتنع ، فيخبرون بمجازات العقول لا بمحالات العقول ، ويمتنع أن يكون في أخبار الرسول ما يناقض صريح العقول ، ويمتنع أن يتعارض دليلان قطعيان ، سواءٌ كانا عقليين أو سمعيين ، أو كان أحدهما عقلياً والآخر سمعياً ، فكيف بمن ادعى كشفاً يناقض صريح الشرع والعقل ؟ !

وهؤلاء قد لا يتعمدون الكذب ، لكن يخيل لهم أشياء تكون في نفوسهم ويظنونها في الخارج ، وأشياءَ يرونها تكون موجودة في الخارج لكن يظنونها من كرامات الصالحين ، وتكون من تلبيسات الشياطين .

وهؤلاءِ الذين يقولون بالوحدة قد يقدِّمون الأولياءَ على الأنبياءِ ، ويذكرون أن النبوة لم تنقطع ، كما يذكر عن ابن سبعين وغيره ، ويجعلون المراتب ثلاثة : يقولون : العبد يشهد أولاً طاعة ومعصية ، ثم طاعة بلا معصية ، ثم لا طاعة ولا معصية ، والشهود الأول هو الشهود الصحيح ، وهو الفرق بين الطاعات والمعاصي ، وأما الشهود الثاني ، فيريدون به شهود القدر ، كما أن بعض هؤلاءِ يقول : أنا كافر برب يعصى ، وهذا يزعم أن المعصية : مخالفة الإرادة التي هي المشيئة ، والخلق كلهم داخلون تحت حكم المشيئة ، ويقول شاعرهم :

أصـبـحـت مـنـفـعـلاً لـمـا تـخـتـاره
مـنـي فـفـعـلـي كـلـه طـاعـات

ومعلوم أن هذا خلاف ما أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، فإن المعصية التي يستحق صاحبها الذم والعقاب ، مخالفة أمر الله ورسوله ، كما قال تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيها وَلَهُ عَـذَابٌ مُهِين ﴾ [النساء : ١٣ - ١٤] وسنذكر الفرق بين الإرادة الكونية والدينية ، والأمر الكوني والديني .

وكانت هذه المسألة قد اشتبهت على طائفة من الصوفية ، فبينها الجنيد رحمه الله لهم ، فمن اتبع الجنيد فيها كان على السداد ، ومن خالفه ضل ، لأنهم تكلفوا بأن الأمور كلها بمشيئة الله وقدرته وفي شهود هذا التوحيد ، وهذا يسمونه الجمع الأول ، فبين لهم الجنيد أنه لا بد من شهود الفرق الثاني ، وهو أنه مع شهود كون الأشياءِ كلها مشتركة في مشيئة الله وقدرته وخلقه ، يجب الفرق بين ما يأمر به ويحبه ويرضاه ، وبين ما ينهى عنه ويكرهه ويسخطه ، ويفرق بين أوليائه وأعدائه ، كما قال تعـالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَـا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم:٣٥-٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] . وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَحْيَاهُمْ وَمَماتهم سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا المسيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر : ٥٨] .

ولهذا كان مذهب سلف الأُمة وأَئمتها أَن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، ما شاءَ كان ، وما لم يشأْ لم يكن ، لا رب غيره ، وهو مع ذلك أمر بالطاعة ونهى عن المعصية وهو لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يأْمر بالفحشاءِ ، وإِن كانت وقعت بمشيئته ، فهو لا يحبها ، ولا يرضاها ، بل يبغضها ويذم أَهلها ويعاقبهم .

وأَما المرتبة الثالثة : أَن لا يشهد طاعة ولا معصية ، فإِنه يرى أَن الوجود واحد ، وعندهم أَن هذا غاية التحقيق والولاية لله ؛ وهو في الحقيقة غاية الالحاد في أَسماءِ الله وآياته ، وغاية العداوة لله ، فإِن صاحب هذا المشهد يتخذ اليهود والنصارى وسائر الكفار أَولياءَ ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُمْ فإِنَّهُ مَنهُم ﴾ [المائدة : ٥١] . ولا يتبرَّأُ من

الشرك والأوثان فيخرج عن ملة إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ، قال الله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقال الخليل عليه السلام لقومه المشركين : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٧٥ ـ ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وهؤلاء قد صنف بعضهم كتباً وقصائد على مذهبه ، مثل قصيدة ابن الفارض المسماة : بنظم السلوك ، يقول فيها :

لـهـا صلواتي في الـمـقـام أُقـيـمُـهـا
وأَشـهـد فـيـهـا أَنـهـا لـيَ صـلَّتِ

كـلانـا مـصـل واحـدٌ سـاجـدٌ إلـى
حقيقتـه بـالـجمـع فـي كـل سجـدةِ

ومـا كـان لي صلَّى سـواي ولـم تكـن
صـلاتـي لغيـري في أَدا كـل ركعـةِ

إلى أن قال :

ما زلت إيَّاها وإيَّاي لم تزل
ولا فرق بل ذاتي لذاتيَ صلَّتِ

إليَّ رسولاً كنت مني مرسلا
وذاتي بآياتي عَليَّ استدلَّتِ

فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن
منادى أجابت من دعاني ولبَّتِ

إلى أمثال هذا الكلام ، ولهذا كان هذا القائل عند الموت ينشد ويقول :

إن كان منزلتي في الحب عندكمُ
ما قد لقيت فقد ضيَّعت أيامي

أمنية ظفرتْ نفسي بها زمناً
واليوم أحسبها أضغاث أحلامِ

فإنه كان يظن أنه هو الله ، فلما حضرت ملائكة الله لقبض روحه، تبين له بطلان ماكان يظنه، وقال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلهِ مَا فِي السَّمَاواتِ وَالأَرض وَهُوَ ٱلْعزيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١] فجميع ما في السماوات وٱلأرض يسبح لله ، ليس هو الله ، ثم قال تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وٱلأَرْض يُحْيِي وَيُمِيتُ

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢ - ٣] .

وفي « صحيح مسلم » عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه : « اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والانجيل والقرآن ، أعوذ بك من شرّ كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيءٌ ، وأنت الأخر فليس بعدك شيءٌ ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيءٌ . وأنت الباطن فليس دونك شيءٌ . اقض عني الدَّين ، وأغنني من الفقر»[1].

ثم قال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ السَّمَاواتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] . فذكر أن السماوات والأرض ، وفي موضع آخر : ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ مخلوق مسبح له ، وأخبر سبحانه أنه يعلم كل شيءٍ .

وأما قوله : ﴿ وهُوَ معَكُمْ ﴾ فلفظ « مع » لا تقتضي في لغة العرب أن يكون أحد الشيئين مختلطاً بالآخر ، كقوله

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٧١٣) في الذكر: بابما يقول عن النوم وأخذالمضجع، وأبو داود رقم (٥٠٥١) في الأدب ، والترمذي رقم (٣٣٩٧) في الدعوات ، وأحمد في « المسند » ٣٨١/٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مع الصَّادِقِين ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وقوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَىٰ ٱلْكُفَّارِ ﴾ [الفتح : ١٩] ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا معَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُم ﴾ [الأنفال : ٧٥] . ولفظ « مع » جاءَت في القرآن عامة وخاصة ، فالعامة في هذه الآية وفي آية المجادلة : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يعْلَمُ مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا في ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوىٰ ثَلاَثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَلَا أَدْنىٰ مِنْ ذٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ معهُمْ أَيْنَما كانُوا ثُم يُنَبِّئهم بِما عَمِلُوا يوْمَ ٱلْقِيامَةِ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : ٧] ، فافتتح الكلام بالعلم ، وختمه بالعلم ، ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل : هو معهم بعلمه .

وأما المعيَّة الخاصة ، ففي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله مَعَ ٱلَّذِينَ اتَّقَوْا وَٱلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] ، وقوله تعالى لموسى : ﴿ إِنِّي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] . وقال تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا ﴾ [التوبة : ٤٠] يعني النبي ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه ، فهو مع موسى وهارون دون فرعون ، ومع محمد وصاحبه دون أبي جهل وغيره من أعدائه ، ومع الذين اتَّقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين .

فلو كان معنى المعيَّة أنه بذاته في كل مكان ، تناقض الخبر الخاص والخبر العام ؛ بل المعنى أنه مع هؤلاءِ بنصره وتأييده دون أولئك ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾[الزخرف : ٨٤] أي هو إله من في السماوات وإله من في الأرض كما قال تعالى:﴿ وله ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧] وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ٣] ، كما فسره أئمة العلم ، كالإمام أحمد وغيره : أنه المعبود في السماوات والأرض .

وأجمع سلف الأمة وأئمتها على أن الرب تعالى بائن من مخلوقاته ، يوصف بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ، ويعلم أنه ليس كمثله شيءٌ ، ولا كقوله في شيءٍ من صفات الكمال ،كما قال الله تعالى :﴿ قُلْ هُو اللَّهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [سورة الإخلاص] .

قال ابن عباس : الصمد : العليم الذي كمل في علمه ، العظيم الذي كمل في عظمته ، القدير الكامل في قدرته ، الحكيم الكامل في حكمته ، السيد الكامل في سؤدده .

وقال ابن مسعود وغيره : هو الذي لا جوف له . والأحد : الذي لا نظير له . فاسمه « الصمد » يتضمن اتصافه بصفات الكمال ، ونفي النقائص عنه ، واسمه « الأحد » يتضمن اتصافه أنه لا مثيل له .

وقد بسطنا الكلام على تفسير ذلك في هذه السورة وفي كونها تعدل ثلث القرآن [1] .

فصل

[اشتباه الحقائق الأمرية الدينية الإيمانية بالحقائق الخلقية القدرية الكونية]

وكثير من الناس تشتبه عليهم الحقائق الأمرية الدينية الإيمانية بالحقائق الخَلقية القدرية الكونية ، فإن الله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، فهو سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه ، لا خالق غيره ، ولا رب سواه ، ما شاءَ كان ، وما لم يشأْ لم يكن ، فكل ما في الوجود من حركة وسكون ، فبقضائه وقدره ومشيئته وقدرته وخلقه ، وهو سبحانه أمر

---

(١) انظر « جواب أهل العلم والإيمان » للمصنف ، وهي من منشوراتنا .

بطاعته وطاعة رسله ، ونهى عن معصيته ومعصية رسله ، أمر بالتوحيد والاخلاص ، ونهى عن الاشراك بالله ، فأعظم الحسنات التوحيد ، وأعظم السيئات الشرك . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨ و ١١٦]، وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وفي « الصحيحين »[1] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت : يا رسول الله ! أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تزني بحليلة جارك » ، فأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ والَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ

---

(١) رواه البخاري : ٨ / ٣٧٨ في تفسير سورة الفرقان : باب قوله تعالى : ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس﴾ ،وفي تفسير سورة البقرة : باب قوله تعالى ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ ، وفي الأدب: باب قتل الولد خشية أن يأكل معه ، وفي المحاربين: باب إثم الزناة ، وفي التوحيد : باب قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك ﴾ ، ومسلم رقم (٨٦) في الإيمان : باب كون الشرك أقبح الذنوب ، وأبو داود رقم (٢٣١٠) في الطلاق : باب تعظيم الزنا ، والترمذي من طريقين رقم (٣١٨١) في التفسير : باب من سورة الفرقان ، والنسائي ٧ / ٨٩ في تحريم الدم : باب ذكر أعظم الذنب ، وأحمد في « المسند » ١ / ٣٨٠ و ٤٢١ و ٤٢٤ .

ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيامةِ ويَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً * إلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ آللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [الفرقان : ٦٨ - ٧٠] .

وأمر سبحانه بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذي القربى ، ونهى عن الفحشاءِ والمنكر والبغي ، وأخبر أنه يحب المتقين ، ويحب المحسنين ، ويحب المقسطين ، ويحب التوَّابين ، ويحب المتطهِّرين ، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، وهو يكره ما نهى عنه ، كما قال في سورة ﴿ سبحان ﴾ : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً ﴾ [الإسراء : ٢٨] .

وقد نهى عن الشرك وعقوق الوالدين ، وأمر بإيتاءِ ذي القربى الحقوق ، ونهى عن التبذير ، وعن التقتير ، وأن يجعل يده مغلولة إلى عنقه ، وأن يبسطها كل البسط ، ونهى عن قتل النفس بغير الحق ، وعن الزنا ، وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن . إلى أن قال : ﴿ كُلُ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مكْرُوهاً ﴾ [الإسراء : ٢٨] .

وهو سبحانه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ، والعبد مأمور أن يتوب إلى الله تعالى دائماً،قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَىٰ اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا آلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفلِحُون ﴾ [النور : ٢١] .

وفي «صحيح البخاري» عن النبي ﷺ أنه قال: «أيُّها النَّاسُ تُوبُوا إلى ربِّكُمْ ، فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة »[1] .

وفي « صحيح مسلم » عنه ﷺ أنه قال : « إنه ليغان على قلبي[2] وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة »[3] .

وفي « السنن » عن ابن عمر قال : كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول : « رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم ، مائة مرة »[4] أو قال : « أكثر من مائة مرة » .

وقد أمر الله سبحانه أن يختموا الأعمال الصالحات

---

(١) رواه البخاري ١١ /٨٥ في الدعوات : باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة ، والترمذي رقم (٣٢٥٥) في تفسير القرآن : باب من سورة محمد ﷺ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) قال ابن الأثير : لَيُغطَّى ويُغْشَىٰ ، والمراد به : السهو ، لأنه كان ﷺ لا يزال في مزيد من الذكر والقُربة ودوام المراقبة ، فإذا سها عن شيء منها في بعض الأوقات ، أو نسيَ عَدَّهُ ذَنباً على نفسه ، ففزع إلى الاستغفار .

(٣) رواه مسلم رقم (٢٧٠٢) في الذكر : باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ، وأبو داود رقم (١٥١٥) في الصلاة : باب في الاستغفار ، من حديث أغرّ مزينة رضي الله عنه ، وليس له في الكتب الستة إلا هذا الحديث وأحمد في « المسند »٢١١/٤ و ٢٦٠ .

(٤) رواه أبو داود رقم (١٥١٦) في الصلاة : باب في الاستغفار ، والترمذي رقم (٣٤٣٠) في الدعوات : باب ما يقول إذا قام من مجلسه ، واسناده صحيح ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

بالاستغفار ، فكان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاثاً ويقـول: « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام » [1] .

كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عنه ،وقد قال تعالى : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٧] فأمرهم أن يقوموا بالليل ويستغفروا بالأسحار .

وكذلك ختم سورة « المزمل » وهي سورة قيام الليل بقوله تعالى :﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[المزمل :٢٠]

وكذلك قال في سورة « الحـج » : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّـاسُ وَٱسْتَغْفِـرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ ﴾[البقرة : ١٩٨ - ١٩٩]

بل أنزل سبحانه وتعالى في آخر الأمر لما غزا النبي ﷺ غزوة تبوك وهي آخر غزواته : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ

---

(١) رواه مسلم رقم (٥٩١) في المساجد: باب استحباب الذكر بعدالصلاة وبيان صفته، مـــن حديث ثوبان رضي الله عنه ، ورواه أيضاً الترمذي رقم (٣٠٠) في الصلاة : باب ما يقول إذا سلم من الصلاة ، والنسائي ٣ /٦٨ في السهو : باب الاستغفار بعد التسليم . وأحمد في « المسند » ٥ / ٢٧٥

مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُم ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ ٱللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة : ١١٧ - ١١٨] وهي من آخر ما نزل من القرآن .

وقد قيل : إن آخر سورة نزلت قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ [سورة النصر] فأمره الله تعالى أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار .

وفي « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي - يتأول القرآن »[1] .

وفي « الصحيحين » عنه ﷺ أنه كان يقول : « اللهم اغفر لي خطيئتي ، وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم

---

(١) رواه البخاري ٢ /٢٤٧ في صفة الصلاة : باب الدعاء في الركوع، وباب التسبيح والدعاء في السجود ، ومسلم رقم (٤٨٤) في الصلاة : باب ما يقال في الركوع والسجود . وأحمد في « المسند » ٦ / ٤٣ و ٤٩ و ١٩٠

به مني ، اللهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطئي ، وعمدي ، وكل ذلك عندي ، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، لا إله إلا أنت »[1] .

وفي « الصحيحين » أن أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه قال : يا رسول الله علمني دعاءً أدعو به في صلاتي ، قال : قل : « اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم »[2] .

وفي « السنن » عن أبي بكر رضي الله عنه قال : يا رسول الله علمني دعاءً أدعو به إذا أصبحت وإذا أمسيت ، فقال : « قل : اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر الشيطان وشركه ، وأن

---

(١) رواه البخاري ١١ /١٦٧ في الدعوات : باب قول النبي ﷺ : « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت » ، ومسلم رقم (٢٧١٩) في الذكر والدعاء : باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ، وأحمد ٤ / ٤١٧ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري ٢ /٢٦٥ في صفة الصلاة : باب الدعاء قبل السلام ، وفي الدعوات : باب الدعاء في الصلاة ، وفي التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ وكان الله سميعاً بصيراً ﴾، ومسلم رقم (٢٧٠٥) في الذكر : باب استحباب خفض الصوت بالذكر .

أقترف على نفسي سوءًا ، أو أجرَّه إلى مسلم . قُله إذا أصبحت وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعك »[1] .

فليس لأحد أن يظن استغناءه عن التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب ؛ بل كل أحد محتاج إلى ذلك دائماً قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَحَمَلَها ٱلإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً * لِيُعَذِّبَ اللهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنافِقَاتِ وٱلْمُشْرِكِينَ وٱلْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَىٰ ٱلْمُؤْمِنِينَ وٱلْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [الأحزاب : ٧٢ - ٧٣] .

فالإنسان ظالم جاهل ، وغاية المؤمنين والمؤمنات التوبة ، وقد أخبر الله تعالى في كتابه بتوبة عباده الصالحين ومغفرته لهم .

وثبت في « الصحيح » عن النبي ﷺ أنه قال : « لن يدخل الجنة أحد بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله برحمة منه وفضل »[2] . وهـذا

---

(١) رواه أبو داود رقم (٥٠٦٧) في الأدب : باب ما يقول : إذا أصبح ، والترمذي رقم (٣٣٨٩) في الدعوات : باب ما يقال في الصباح والمساء ، وأحمد في « المسند » ١ / ٩ و ١٠ و ١٤ ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) رواه البخاري ١٠ / ١٠٩ في المرضى : باب تمني المريض الموت ، وفي الرقاق : باب القصد والمداومة على العمل ، ومسلم رقم (٢٨١٦) في صفات المنافقين : باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، والنسائي ٨ / ١٢١ ، ١٢٢ في الإيمان : باب الدين يسر ، وأحمد في « المسند » ٢ / ٢٣٥ و ٢٥٦ و ٢٦٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

لا ينافي قوله: ﴿كُلُواوَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة : ٢٤] ، فإن الرسول ﷺ نفى باءَ المقابلة والمعادلة ، والقرآن أثبت باءَ السبب .

وقول من قال : إذا أحب الله عبداً لم تضره الذنوب ، معناه أنه إذا أحب عبداً ألهمه التوبة والاستغفار فلم يصرَّ على الذنوب ، ومن ظن أن الذنوب لا تضر من أصرَّ عليهم ، فهو ضالٌّ مخالف للكتاب والسنة ، وإجماع السلف والأئمة ؛ بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

وإنما عباده الممدوحون هم المذكورون في قوله : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣ ـ ١٣٥] .

ومن ظن أن القدر حجة لأهل الذنوب فهو من جنس المشركين الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْء ﴾ [الأنعام : ١٤٨] . قال الله تعالى ردًّا عليهم : ﴿ كَذٰلِكَ

كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٨ - ١٤٩] .

ولو كان القدر حجة لأحد لم يعذِّب الله المكذبين للرسل ، كقوم نوح وعاد وثمود والمؤتفكات ، وقوم فرعون ، ولم يأمر بإقامة الحدود على المعتدين ، ولا يحتج أحد بالقدر إلا إذا كان متبعاً لهواه بغير هدى من الله ، ومن رأى القدر حجة لأهل الذنوب يرفع عنهم الذمَّ والعقاب ، فعليه أن لا يذم أحداً ولا يعاقبه إذا اعتدي عليه، بل يستوي عنده ما يوجب اللذة وما يوجب الألم ، فلا يفرق بين من يعمل معه خيراً ولا بين من يفعل معه شرًّا ، وهذا ممتنع طبعاً وعقلاً وشرعاً . وقد قال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ في الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم : ٣٥] . وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَواءً مَحْيَاهُمْ وَمَماتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] . وقال

تعالى :﴿ أَيَحْسَبُ آلإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدى ﴾ [القيامة : ٣٦] أي مهملاً لا يُؤمر ولا يُنهى .

وقد ثبت في « الصحيحين » عن النبي ﷺ أنه قال : « احتجَّ آدم وموسى ، قال موسى : يا آدم ! أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، أخرجتَنا ونفسك من الجنة ؟ فقال له آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه ، وكتب لك التوراة بيده ؟ فبكم وجدت مكتوباً عليَّ قبل أن أُخلق : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه : ١٢١] ؟ قال : بأربعين سنة ؟ قال : فلمَ تلومني على أمر قدَّره الله عليَّ قبل أن أُخلق بأربعين سنة ؟ قال : فحجَّ آدم موسى »[1] أي غلبه بالحجة .

وهذا الحديث ضلَّت فيه طائفتان : طائفة كذَّبت به لما ظنوا أنه يقتضي رفع الذم والعقاب عمن عصى الله لأجل القدر ، وطائفة شر من هؤلاءِ جعلوه حجة . وقد يقولون القدر حجة لأهل الحقيقة الذين شهدوه ، أو الذين لا يرون

---

(١) رواه البخاري ٨ / ٣٢٩ في التفسير : تفسير سورة طه ، وفي القدر : باب تحاج آدم وموسى ، وفي الأنبياء : باب وفاة موسى عليه السلام ، وفي التوحيد : باب قوله تعالى ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ ،ومسلم رقم (٢٦٥٢) في القدر : باب حجاج آدم وموسى ، وأبو داود رقم (٤٧٠١) في السنة : باب في القدر ، والترمذي رقم (٢١٣٥) في القدر : باب حجاج آدم وموسى ، وأحمد في « المسند » ٢ / ٢٤٨ و ٢٦٤ و ٢٦٨ و ٣٩٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أن لهم فعلاً ، ومن الناس من قال : إنما حج آدم موسى لأنه أبوه ، أو لأنه قد تاب ؛ أو لأن الذنب كان في شريعة واللوم في أخرى ، أو لأن هذا يكون في الدنيا دون الأخرى ، وكل هذا باطل .

ولكن وجه الحديث أن موسى عليه السلام لم يلم أباه إلا لأجل المصيبة التي لحقتهم من أجل أكله من الشجرة ، فقال له : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ لم يلمه لمجرد كونه أذنب ذنباً وتاب منه ، فإن موسى يعلم أن التائب من الذنب لا يُلام ، وهو قد تاب منه أيضاً ، ولو كان آدم يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدَر لم يقل : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

والمؤمن مأمور عند المصائب أن يصبر ويسلِّم ، وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب ، قال الله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [غافر : ٥٥] فأمره بالصبر على المصائب ، والاستغفار من المعائب .

وقال تعالى : ﴿ مَا أَصابَ مِنْ مُصِيبةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن : ١١] . قال ابن مسعود : هو الرجل تصيبه المصيبة يعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم .

فالمؤمنون إذا أصابتهم مصيبة مثل المرض والفقر والذل ، صبروا لحكم الله ، وإن كان ذلك بسبب ذنب غيرهم ، كمن أنفق أبوه ماله في المعاصي فافتقر أولاده لذلك ، فعليهم أن يصبروا لما أصابهم ، وإذا لاموا الأب لحظوظهم ، ذكر لهم القدَر .

والصبر واجب باتفاق العلماءِ ، وأعلى من ذلك الرضى بحكم الله ، والرضى قد قيل : إنه واجب ، وقيل : هو مستحب ، وهو الصحيح ، وأعلى من ذلك أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها ، حيث جعلها سبباً لتكفير خطاياه ، ورفع درجاته ، وإنابته إلى الله وتضرعه إليه ، وإخلاصه له في التوكل عليه ورجائه دون المخلوقين .

وأما أهل البغي والضلال فتجدهم يحتجون بالقدر إذا أذنبوا واتَّبعوا أهواءَهم ، ويضيفون الحسنات إلى أنفسهم إذا أنعم عليهم بها ، كما قال أحد العلماءِ : أنت عند الطاعة قَدَري ، وعند المعصية جبري ، أيّ مذهب وافق هواك تمذهبت به .

وأهل الهدى والرشاد إذا فعلوا حسنة ، شهدوا إنعام الله عليهم بها ، وأنه هو الذي أنعم عليهم وجعلهم مسلمين ، وجعلهم يقيمون الصلاة ، وألهمهم التقوى ، وأنه لا حول ولا قوة إلا به ، فزال عنهم بشهود القدر العُجْب والمنُّ والأذى ،

وإذا فعلوا سيئة استغفروا الله وتابوا إليه منها .

ففي « صحيح البخاري » عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « سيِّد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ،خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوءُ لك بنعمتك عليَّ وأبوءُ بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة »[1] .

وفي الحديث الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا . يا عبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أبالي ، فاستغفروني أغفر لكم . يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم . يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم . يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم . يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضَري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا

---

(١) رواه البخاري ١١ /٨٣ في الدعوات : باب أفضل الاستغفار ، وباب ما يقول إذا أصبح . وليس لشداد بن أوس رضي الله عنه في « صحيح البخاري » سوى هذا الحديث . والترمذي رقم (٣٣٩٠) في الدعوات : باب رقم (١٥) ، والنسائي ٨ / ٢٧٩ في الاستعاذة : باب الاستعاذة من شر ما صنع ، وأحمد في « المسند » ٤ / ١٢٢ و ١٢٥ .

عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط غمسة واحدة . يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[1] .

فأمر سبحانه بحمد الله على ما يجده العبد من خير وأنه إذا وجد شرًّا فلا يلومن إلا نفسه .

وكثير من الناس يتكلم بلسان الحقيقة ، ولا يفرِّق بين الحقيقة الكونية القدرية المتعلقة بخلقه ومشيئته ، وبين الحقيقة الدينية الأمرية المتعلقة برضاه ومحبته ، ولا يفرِّق بين من يقوم بالحقيقة الدينية موافقاً لما أمر الله به على ألسن

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٥٧٧) في البر والصلة : باب تحريم الظلم ، والترمذي رقم (٢٤٩٧) في صفة القيامة : باب رقم ٤٩ ، وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام ، وقد اشتمل على قواعد عظيمة في أصول الدين ، وهو من الأحاديث التي عليها مدار الاسلام ، وقد شرحه العلماء وأفردوه بالتأليف ، منهم شيخ الاسلام ابن تيمية ، وقد خرجت أحاديثها وهي من منشورات مكتبة دار البيان بدمشق ، وكان أبو ادريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه ، وقال أحمد بن حنبل : ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث .

رسله ، وبين من يقوم بوجده وذوقه غير معتبر ذلك بالكتاب والسنة ، كما أن لفظ الشريعة يتكلم به كثير من الناس ، ولا يفرِّق بين الشرع المنزَّل من عند الله تعالى وهو الكتاب والسنة الذي بعث الله به رسوله ، فإن هذا الشرع ليس لأحد من الخلق الخروج عنه ، ولا يخرج عنه إلا كافر ، وبين الشرع الذي هو حكم الحاكم ، فالحاكم تارة يصيب وتارة يخطىءُ . هذا إذا كان عالماً عادلاً ، وإلا ففي « السنن » عن النبي ﷺ أنه قال : « القضاة ثلاثة : قاضيان في النار ، وقاض في الجنة ؛ رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق فقضى بغيره فهو في النار »[1] .

وأفضل القضاة العالمين العادلين سيد ولد آدم محمد ﷺ . فقد ثبت عنه في « الصحيحين » أنه قال : « إنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار »[2] .

---

(١) رواه أبو داود رقم (٣٥٧٣) في الأقضية : باب في القاضي يخطىء ، والترمذي رقم (١٣٢٢) في الأحكام : باب ما جاء عن رسول الله ﷺ في القاضي ، وابن ماجه رقم (٢٣١٥) في الأحكام باب الحكم يجتهد فيصيب الحق ، من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه ، ورواه أيضاً الطبراني وأبو يعلى من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وهو حديث صحيح .

(٢) رواه البخاري ٥ /٢١٢ في الشهادات : باب من أقام البينة بعد اليمين ، وفي =

فقد أخبر سيِّد الخلق أنه إذا قضى بشيء مما سمعه وكان في الباطن بخلاف ذلك ، لم يجز للمقضي له أن يأخذ ما قضي به له ، وأنه إنما يقطع له به قطعة من النار .

وهذا متفق عليه بين العلماءِ في الأملاك المطلقة . إذا حكم الحاكم بما ظنه حجة شرعية كالبينة والإقرار ، وكان الباطن بخلاف الظاهر ، لم يجز للمقضي له أن يأخذ ما قضي به له بالاتفاق . وإن حكم في العقود والفسوخ بمثل ذلك ، فأكثر العلماءِ يقول : إن الأمر كذلك ، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وفرّق أبو حنيفة رضي الله عنه بين النوعين .

فلفظ الشرع والشريعة إذا أُريد به الكتاب والسنة لم يكن لأحد من أولياءِ الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه ، ومن ظن أن

= المظالم : باب إثم من خاصم في الباطل وهو يعلمه ، وفي الحيل : باب إذا غصب جاريته فزعم أنها ماتت فقضى بقيمة الجارية الميتة ثم وجد صاحبها فهي له ، وفي الأحكام : باب موعظة الإمام للخصوم ، وباب من قضى له بحق أخيه فلا يأخذه ، وباب القضاء في كثير المال وقليله ، ومسلم رقم (١٧١٣) في الأقضية : باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، و « الموطأ » ٢ / ٧١٩ في الأقضية : باب الترغيب في القضاء بالحق ، وأبو داود رقم (٣٥٨٣) و (٣٥٨٤) في الأقضية : باب في قضاء القاضي إذا اخطأ ، والترمذي رقم (١٣٣٩) في الأحكام : باب ما جاء في التشديد على من يقضى له ، والنسائي ٨ /٢٣٣ في القضاء : باب الحكم بالظاهر ، وأحمد في « المسند » ٦ /٢٠٣ و ٢٩٠ و ٣٠٨ و ٣٢٠ من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

لأحد من أولياءِ الله طريقاً إلى الله غير متابعة محمد ﷺ باطناً وظاهراً فلم يتابعه باطناً وظاهراً فهو كافر .

ومن احتج في ذلك بقصة موسى مع الخضر ، كان غالطاً من وجهين :

أحدهما : أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ، ولا كان على الخضر اتِّباعه ، فإن موسى كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل ، وأما محمد ﷺ فرسالته عامة لجميع الثقلين : الجن ، والإنس ، ولو أدركه من هو أفضل من الخضر ، كإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم اتِّباعه ، فكيف بالخضر سواء كان نبياً أو ولياً ؟ ! ولهذا قال الخضر لموسى : « أنا على علم من علم الله علمنيه الله لأتعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله ، لا أعلمه »[1] وليس لأحد من الثقلين الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ أن يقول مثل هذا .

الثاني : أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفاً لشريعة موسى عليه السلام ، وموسى لم يكن علم الأسباب التي تبيح

---

(١) رواه البخاري ٨ / ٣١٠ - ٣٢٢ في تفسير سورة الكهف : باب ﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ ، وفي كتب أخر ، ومسلم رقم (٢٣٨٠) في الفضائل : باب فضائل الخضر عليه السلام ، والترمذي رقم (٣١٤٨) في التفسير : باب ومن سورة الكهف ، وأحمد في « المسند » ٥ / ١١٨ من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .

ذلك ، فلما بيَّنها له وافقه على ذلك ، فإنَّ خرق السفينة ثم ترقيعها لمصلحة أَهلها خوفاً من الظالم أَن يأْخذها ، إحسان إليهم ، وذلك جائز ، وقتل الصائل جائز وإن كان صغيراً ، ومن كان تكفيره لأَبويه لا يندفع إلا بقتله جاز قتله .

قال ابن عباس رضي الله عنهما لنجدة الحروري لما سأَله عن قتل الغلمان ، قال له : إن كنت علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم ، وإلا فلا تقتلهم ، رواه البخاري[1]

وأما الاحسان إلى اليتيم بلا عوض والصبر على الجوع ، فهذا من صالح الأَعمال ، فلم يكن في ذلك شيءٌ مخالفاً شرع الله .

وأَما إذا أُريد بالشرع حكم الحاكم، فقد يكون ظالماً ، وقد يكون عادلًا ، وقد يكون صواباً ، وقد يكون خطأً ، وقد يراد بالشرع قول أَئمة الفقه ، كأَبي حنيفة والثوري ومالك بن أَنس والأَوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأَحمد وإسحاق وداود وغيرهم ، فهؤلاءِ أَقوالهم يحتج لها بالكتاب والسنة ، وإذا قلد غيره حيث يجوز ذلك ، كان جائزاً ، أَي ليس اتباع أَحدهم واجباً على جميع الأُمة ، كاتباع الرسول ﷺ ،

---

(١) حديث نجدة هذا لم يروه البخاري ، وإنما رواه مسلم رقم (١٨١٢) في الجهاد ، باب النساء الغازيات يرضخ لهن ولا يسهم والنهي عن قتل صبيان أهل الحرب ، وأحمد في « المسند » ١ / ٣٠٨ و ٣٥٢ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

ولا يحرم تقليد أحدهم ،كما يحرم اتباع من يتكلم بغير علم .

وأما إن أضاف أحد إلى الشريعة ما ليس منها من أحاديث مفتراة ، أو تأول النصوص بخلاف مراد الله ، ونحو ذلك ، فهذا من نوع التبديل فيجب الفرق بين الشرع المنزَّل ، والشرع المؤوَّل ، والشرع المبدَّل ، كما يفرق بين الحقيقة الكونية والحقيقة الدينية الأمرية ، وبين ما يستدل عليها بالكتاب والسنة ، وبين ما يكتفى فيها بذوق صاحبها ووجده .

فصل

[في الفرق بين الكوني والديني من ألفاظ الإدارة والأمر]

وقد ذكر الله في كتابه : الفرق بين الارادة والأمر والقضاءِ والإذن والتحريم والبعث والارسال والكلام والجعل ، وبين الكوني الذي خلقه وقدره وقضاه ، وإن كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثيب أصحابه ، ولا يجعلهم من أوليائه المتقين ، وبين الديني الذي أمر به وشرعه وأثاب فاعليه وأكرمهم . وجعلهم من أوليائه المتقين ، وحزبه المفلحين وجنده الغالبين ؛ وهذا من أعظم الفروق التي يفرّق بها بين أولياءِ الله وأعدائه ، فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ، ومات على ذلك كان من أوليائه ، ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ، ومات على ذلك كان من أعدائه .

فالإرادة الكونية هي مشيئته لما خلقه ، وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته وإرادته الكـونية ، والارادة الـدينية هي المتضمنة لمحبته ورضاه المتناولة لما أمر به وجعله شرعاً وديناً .

وهذه مختصة بالايمان والعمل الصالح ، قال الله تعالى في الأولى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَه يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

وقال نوح عليه السلام لقومه : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ ٱللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود : ١٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ [الرعد : ١١] ، وقال تعالى في الثانية : ﴿وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ الله بِكُمْ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] . وقال في آية الطهارة : ﴿ مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِرَكُم وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] . ولما ذكر ما أحله وما حرمه من النكاح قال : ﴿ يُرِيدُ الله لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً *

يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ ٱلإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾ [النساء : ٢٦ - ٢٧] .

وقال لما ذكر ما أمر به أزواج النبي ﷺ وما نهاهنَّ عنه : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب : ٣٣] والمعنى أنه أمركم بما يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ، فمن أطاع أمره كان مطهراً قد أذهب عنه الرجس ، بخلاف من عصاه .

وأما الأمر ، فقال في الأمر الكوني*: ﴿ إِنَّمَا قَوْلنا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُأَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] ، وقال تعالى :﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ ﴾[القمر: ٥٠] وقال تعالى : ﴿ أَتَاها أَمْرنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ ﴾ [يوس : ٢٤] .

وأما الأمر الديني فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي ٱلْقُرْبى وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِها وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [النساء : ٨٥] .

---

* أي في الأمر الكوني والديني كما تقدم التقسيم .

وأَما الإِذن ، فقال في الكوني* لما ذكر السحر : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [البقرة : ١٠٢] أي بمشيئته وقدرته ، وإِلا فالسحر لم يبحه الله عز وجل .

وقال في الإِذن الديني : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ﴾ [الشورى : ١٢١] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَىٰ اللهِ بِإِذْنِهِ ﴾ [الأحزاب : ٤٥ـ ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [النساء : ٦٤] ، وقال تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِها فَبِإِذنِ اللهِ ﴾ [الحشر : ٥] .

وأَما القضاء فقال في الكوني : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاواتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [السجدة : ١٢] . وقَال سبحانه : ﴿ إِذَا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكون ﴾ [البقرة : ١١٧] .

وقال في الديني* : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه ﴾ [الإِسراء : ٢٣] أي أَمر ، وليس المراد به : قدَّر ذلك ، فإِنه قد عبد غيره ، كما أَخبر في غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ ويَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ لَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنا عِنْدَ اللهِ ﴾ [يونس : ١٨] .

---

* أي في الأمر الكوني والديني كما تقدم التقسيم .

وقول الخليل عليه السلام لقومه : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ ٱلأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ ٱلْعالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٧٥ - ٧٧] وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إِبْراهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبدَا بَيْنَنا وبينَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إلا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الممتحنة : ٤] وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُم عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُم وَلِيَ دِين ﴾ [سورة الكافرون] . وهذه كلمة تقتضي براءَته من دينهم . ولا تقتضي رضاه بذلك ، كما قال تعالى في الآية الأُخرى : ﴿ وإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٣١] .

ومن ظن من الملاحدة أَن هذا رضى منه بدين الكفار ، فهو من أَكذب الناس وأَكفرهم ، كمن ظن أَن قوله : ﴿ وَقَضَىٰ ربُّكَ ﴾ [الإسراء : ٢٣] بمعنى قدر ، وأَن الله سُبْحانَهُ مَا قَضَىٰ بِشَيْءٍ إلَّا وقع ، وجعل عبَّاد الأَصنام ما عبدوا إلَّا الله ، فإن هذا من أَعظم الناس كفراً بالكتب .

وأما لفظ البعث ، فقال تعالى في البعث الكوني : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ ،وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً ﴾[الإسراء: ٢٥].

وقال في البعث الديني : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُو عَلَيْهِم آيَاتِه وَيُزْكِيهِم وَيُعَلِّمُهُم ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة : ٢] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاًأَنِ ٱعْبُدُوا اللهوَٱجْتَنِبُواالطَّاغُوتَ ﴾[النحل: ٣٦].

وأما لفظ الارسال فقال في الارسال الكوني : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَىٰ ٱلْكَافِرِينَ تؤزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم : ٥٣] وقال تعالى : ﴿ وَهُو ٱلَّذِي أَرْسلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ ﴾ [الفرقان : ٤٨] .

وقال في الديني : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الأحزاب : ٤٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ ﴾ [نوح : ١] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُم رسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنَا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾[المزمل: ١٥] وقال تعالى : ﴿ الله يَصْطَفِي مِنَ ٱلْملائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٥] .

وأما لفظ الجعل فقال في الكوني ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئمَّةً يَدْعُونَ

إِلَى النَّارِ ﴾ [القصص : ٤١] .

وقال في الديني : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً ﴾ [المائدة : ٤٨] وقال تعالى : ﴿ ما جَعَلَ ٱللهُ مِنْ بَحِيْرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ ولا وَصِيلةٍ ولا حامٍ ﴾ [المائدة : ١٠٣] .

وأما لفظ التحريم ، فقال في الكوني : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [القصص : ١٢] وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة : ٢٦] .

وقال في الديني : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ﴾ [المائدة : ٣] وقال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَواتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وبناتُ ٱلْأُخْتِ ﴾ الآية [النساء : ٢٣] .

وأما لفظ الكلمات ، فقال في الكلمات الكونية : ﴿ وَصَدَّقَت بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ﴾ [التحريم : ١٢] .

وثبت في « الصحيح » عن النبي ﷺ أنه كان يقول : « أعوذ بكلمات الله التامة كلها من شر ما خلق ، ومن غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون »[1] .

---

(١) الذي في الصحيح الحديث الذي بعده ، وأما روايته بهذا اللفظ فقد رواه مالك ٢/٩٥٠ بلاغاً في الشعر: باب ما يؤمر به من التعوذ، ورواه الترمذي رقم (٣٥١٩) في الدعوات : باب رقم ٩٦ ، وأبو داود رقم (٣٨٩٣) في الطب : باب كيف الرقى ، وهو حديث حسن .

وقال ﷺ : « من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيءُ حتى يرتحل من منزله ذلك »[1] .

وكان يقول : « أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر ، ومن شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق ، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن »[2] .

وكلمات الله التامَّات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر ، هي التي كوَّن بها الكائنات ، فلا يخرج برّ ولا فاجر عن تكوينه ومشيئته وقدرته. وأما كلماته الدينية ، وهي كتبه المنزلة وما فيها من أمره ونهيه ، فأطاعها الأبرار ، وعصاها الفجَّار .

وأولياءُ الله المتقون هم المطيعون لكلماته الدينية ، وجعله الديني ، وإذنه الديني ، وإرادته الدينية .

وأما كلماته الكونية التي لا يجاوزها برّ ولا فاجر ، فإنه يدخل تحتها جميع الخلق ، حتى إبليس وجنوده وجميع

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٧٠٨) في الذكر : باب في التعوذ من سوء القضاء ، من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها .

(٢) رواه مالك في « الموطأ » ٢ / ٩٥٠ في الشعر : باب ما يؤمر به من التعوذ ، مرسلاً وأحمد في « المسند » ٣ / ٤١٩ من حديث عبد الرحمن بن خنبش ، وهو حديث صحيح .

الكفار وسائر من يدخل النار ، فالخلق وإن اجتمعوا في شمول الخلق والمشيئة والقدرة والقدر لهم ، فقد افترقوا في الأَمر والنهي والمحبة والرضى والغضب .

وأَولياءُ الله المتقون هم الذين فعلوا المأْمور ، وتركـوا المحظور ، وصبروا على المقدور ، فأَحبهم وأَحبّوه ، ورضي عنهم ورضوا عنه .

وأَعداؤُه أَولياءُ الشياطين ، وإِن كانوا تحت قدرته فهو يبغضهم ، ويغضب عليهم ويلعنهم ويعاديهم .

وبسط هذه الجمل له موضع آخر ، وإِنما كتبت هنا تنبيهاً على مجامع الفرق بين أَولياءِ الرحمن وأَولياءِ الشيـطان ، وجمع الفرق بينهما اعتبارهم بموافقة رسول الله ﷺ ، فإِنه هو الذي فرَّق الله تعالى به بين أَوليائه السعداءِ ، وأَعدائـه الأَشقياءِ ، وبين أَوليائه أَهل الجنة ، وأَعدائه أَهل النار ، وبين أَوليائه أَهل الهدى والرشاد ، وبين أَعدائه أَهل الغي والضلال والفساد ، وأَعدائه حزب الشيطان ، وأَوليائه الذين كتب في قلوبهم الايمان ، وأَيَّدهم بروح منه،قال تعالى : ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوادّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية [المجادلة : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِذْ

يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ ٱلأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ ﴾ [الأنفال : ١٢] .

وقال في أعدائه : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلوكُم ﴾ [الأنعام : ١٢١] . وقال : ﴿ وَكَذٰلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ ٱلإِنْسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ [الأنعام : ١١٢] ، وقال : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ * إِلاَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وَٱنتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَالاَتُبْصِرُونَ * إِنَّـهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * وَلَو تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّـهُ لَحَسْرَةٌ عَلَىٰ ٱلْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ

بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحاقة : ٣٨ ـ ٥٢] . وقال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور : ٢٩ ـ ٣٤] .

فنزَّه سبحانه وتعالى نبينا محمداً ﷺ عمن تقترن به الشياطين من الكهّان والشعراءِ والمجانين ، وبيّن أن الذي جاءَه بالقرآن ملك كريم اصطفاه . قال الله تعالى : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٥] ، وقال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٨] وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ الآية ، [البقرة : ٩٧] وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَجِيمِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ١٠٢] ، فسماه الروح الأمين ، وسماه روح القدس ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ [التكوير : ١٥ ـ ١٦] يعني الكواكب التي تكون في السماءِ خانسة ، أي مختفية قبل طلوعها ، فإذا ظهرت رآها الناس جارية في السماءِ فإذا غربت ذهبت إلى كناسها الذي يحجبها ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ [التكوير : ١٧] أي إذا أدبر وأقبل الصبح ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أي أقبل

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ أي مطاع في السماءِ أمين ، ثم قال : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير : ١٨ - ٢١] صاحبكم الذي منَّ الله عليكم به ، إذ بعثه إليكم رسولاً من جنسكم يصحبكم إذ كنتم لا تطيقون أن تروا الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ [الأنعام : ٨و٩] . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي رأى جبريل عليه السلام ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِظَنِينٍ[1] ﴾ [التكوير : ٢٣ - ٢٤] أي بِمُتَّهم ، وفي القراءَة الأُخرى ﴿ بِضنين ﴾ أي ببخيل يكتم العلم ولا يبذله إلا بجعل ، كما يفعل من يكتم العلم إلا بالعوض ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ [التكرير : ٢٥] فنزَّه جبريل عليه السلام عن أن يكون شيطاناً ، كما نزَّه محمداً ﷺ عن أن يكون شاعراً أو كاهناً .

فأولياءُ الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ ، فيفعلون ما أَمر به ، وينتهون عما عنه زجر ، ويقتدون به فيما بيَّن لهم أَن يتبعوه فيه ، فيؤيدهم بملائكته وروح منه ، ويقذف الله في قلوبهم من أَنواره ، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها

---

(١) وهي قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو ، والكسائي ، ورويس ، والتي بعدها بالضاد ، هي قراءة حفص عن عاصم وغيره .

أولياءه المتقين وخيار أولياءِ الله ، كراماتهم لحجة في الدين ، أو لحاجة بالمسلمين ، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك .

وكرامات أولياءِ الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله ﷺ ، فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ مثل انشقاق القمر[1] وتسبيح الحصا في كفه[2] ، وإتيان الشجر إليه[3] ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، ومسلم والترمذي من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، والبخاري ومسلم من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، والبخاري ومسلم والترمذي من حديث أنس ، والترمذي من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه . وانظر «جامع الاصول» ١١/٣٩٦ - ٣٩٨ ، الأرقام : (٨٩٣٣) و (٨٩٣٤) و (٨٩٣٥) و (٨٩٣٦) و (٨٩٣٧) .

(٢) ذكره الهيثمي في «مجمع الزائد» ٥/١٧٩ من حديث ابي ذر رضي الله عنه، وقال في آخره : رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه محمد بن أبي حميد، وهو ضعيف ، وذكره ايضاً من طريق آخر أحسن عن أبي ذر رضي الله عنه، في «المجمع» ٨/٢٩٩ وقال في آخره : رواه البزار باسنادين ورجال احمد هما ثقات وفي بعضهم ضعف، وذكره ملاعلي القاري في «شرح الشفا» للقاضي عياض ١/٦٢٧ و ٦٢٨ من رواية ابن عساكر في «تاريخه» من حديث أنس ، وسكت عنه ، وانظر «فتح الباري» ٦/٤٣٣ و ٤٣٤ وما قاله الحافظ ابن حجر رحمه الله حول هذا الحديث.

(٣) روى مسلم في «صحيحه» رقم (٣٠١٢) في حديث جابر رضي الله عنه، وقصة ابي اليسر الطويل، قال: ذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فاتبعه باداوة من ماء ، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به ، فإذا شجرتان بشاطىء الوادي ، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما ، فأخذ بغصن من أغصانها ، فقال : «انقادي عليَّ بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش ، الذي يصانع قائده ، حتى أتى الشجرة الاخرى ، فأخذ بغصن من أغصانها ، فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله» فانقادت معه . . . .» الحديث بطوله .

وهناك روايات أخرى للحديث تدل على إتيان الشجر اليه ورجوعها الى مكانها ، كما في =

وحنين الجذع إليه[1] ، وإخباره ليلة المعراج بصفة بيت المقدس[2] ، وإخباره بما كان وما يكون[3] ، وإتيانه بالكتاب العزيز ، وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة ، كما أُشبع في الخندق العسكر من قدر طعام وهو لم ينقص ، في حديث أم سليم المشهور[4] ، وروَّى العسكر في غزوة خيبر من مزادة ماء ولم تنقص[5] وملأ أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل

= رواية احمد عن طلحة بن نافع ، والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ومن حديث بريدة رضي الله عنه عند البزار، وهو حديث صحيح بشواهده .

انظر «شرح الزرقاني على المواهب اللدنية» ٥/١٢٩ ـ ١٣٢ و «شرح السنة» للبغوي ١٣/٢٩٥ ـ ٢٩٧ .

(١) رواه البخاري والنسائي من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، والبخاري من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، والترمذي من حديث انس رضي الله عنه ، وانظر «جامع الأصول» ١١/٣٣٢ و ٣٣٤ رقم (٨٨٩٧) و (٨٨٩٨) و (٨٨٩٩).

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، انظر «جامع الاصول» ١١/٣١٠ رقم (٨٨٧٢).

(٣) رواه مسلم رقم (٢٨٩٢) في الفتن وأشراط الساعة: باب اخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة من حديث عمرو بن اخطب الانصاري رضي الله عنه، ورواه البخاري ومسلم وأبو داود من حديث حذيفة رضي الله عنه ، وانظر «جامع الأصول» ١١/٣٢٤ و ٣٢٥ رقم (٨٨٨٢) و (٨٨٨٣) و (٨٨٨٤).

(٤) رواه البخاري ومسلم و«الموطأ» والترمذي من حديث أنس رضي الله عنه ، وانظر «جامع الأصول» ١١/٣٥٦ رقم (٨٩١٠).

(٥) رواه البخاري ٦/٤٢٥ و ٤٢٦ في أحاديث الانبياء : باب في علامات النبوة في الإسلام ، ومسلم رقم (٦٨٢) في المساجد ، وباب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال: كنا في سفر مع رسول الله =

. ولم ينقص[1] وهم نحو ثلاثين ألفاً، ونبع الماءُ من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه ، كما كانوا في غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة[2] ، ورده لعين أبي قتادة حين سالت على خدِّه فرجعت أحسن عينيه[3] ، ولما أرسل محمد بن مسلمة لقتل كعب بن

= ﷺ . . الحديث وقد ذكر المؤلف رحمه الله أن ذلك كان في غزوة خيبر ، قال الحافظ في «الفتح» ١ / ٣٧٩ في التيمم ، باب الصعيد الطيب وضوء المسلم يكفيه عن الماء : اختلف في تعيين هذا السفر ، ففي مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه وقع عند رجوعهم من خيبر قريب من هذه القصة . وفي ابي داود من حديث ابن مسعود رضي الله عنه : أقبل النبي ﷺ من الحديبية ليلاً فنزل فقال : «من يكلؤ نا» فقال بلال : انا . . . » الحديث. وفي «الموطأ» عن زيد أسلم مرسلاً : عرَّس رسول الله ﷺ ليلة بطريق مكة ، ووكل بلالاً . وفي «مصنف عبد الرزاق» عن عطاء بن يسار مرسلاً أن ذلك كان بطريق تبوك ، وانظر بقية كلام الحافظ في «الفتح» ١ / ٣٧٩ .

(١) رواه مسلم رقم (٢٧) (٤٤) و (٤٥) في الايمان : باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أو عن أبي هريرة أو أبي سعيد الخدري على الشك .

قوله : وهم نحو ثلاثين الفاً ، ليس في الحديث ، وإنما هو من كلام المؤلف رحمه الله .

(٢) رواه البخاري ٦/٤٢٩ في احاديث الانبياء : باب علامات النبوة في الاسلام ، وفي المغازي : باب غزوة الحديبية وفي تفسير سورة الفتح ، وفي الاشربة : باب شرب البركة والماء المبارك ، ومسلم رقم (١٨٥٦) في الامارة : باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال .

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/٢٩٧ وأنه كان في غزوة احد ، وقال : رواه الطبراني وأبو يعلى ، وفي اسناد الطبراني من لم اعرفهم ، وفي اسناد ابي يعلى يحيى بن عبد الحميد الحماني ، وهو ضعيف .

الأَشرف فوقع وانكسرت رجله فمسحها فبرأَت[١] ، وأَطعم من شواءٍ مائة وثلاثين رجلاً كلاً منهم حزَّ له قطعة ، وجعل منها قطعتين فأَكلوا منها جميعهم ، ثم فضل فضلة[٢] .

و[قضى] دين عبد الله أَبي جابر لليهودي وهو ثلاثون وسقاً[٣] .

قال جابر : فأَمر صاحب الدَّين أَن يأْخذ التمر جميعه بالذي كان له فلم يقبل ؛ فمشى فيها رسول الله ﷺ ، ثم قال لجابر : جد له ، فوفاه الثلاثين وسقاً ، وفضل سبعة عشر وسقاً ومثل هذا كثير ، قد جمعت نحو أَلف معجزة .

وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جداً ، مثل ما كان أُسيد بن حضير يقرأُ سورة الكهف فنزل من السماءِ مثل الظلة فيها أَمثال السرج ، وهي الملائكة نزلت لقراءَته[٤] وكانت الملائكة تسلِّم على عمران بن حصين ، وكان سلمان وأَبو الدرداءِ يأْكلان في صحفة ، فسبحت

---

(١) الذي أصيب في ليلة قتل كعب بن الأشرف هو الحارث بن أوس بن معاذ ، وتفل رسول الله ﷺ على جرحه فلم يؤذه بعد .

(٢) رواه البخاري ١١ /٢٧ في الاستئذان : باب إذا دعي الرجل فجاء هل يستأذن ، وفي الرقاق : باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا . والترمذي رقم (٢٤٧٩) في صفة القيامة : باب رقم ٣٧ .

(٣) رواه البخاري ٥ / ٤٥ في الاستقراض : باب إذا قاص أو جازفه في الدين وفي الصلح : باب الصلح بين الغرماء .

(٤) رواه البخاري ٩ /٥٢ في فضائل القرآن : باب فضل سورة الكهف ، وفي الأنبياء : =

الصحفة أَو سبح ما فيها . وعباد بن بشر وأَسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة ، فأَضاءَ لهما نور مثل طرف السوط ، فلما افترقا ؛ افترق الضوءُ معهما رواه البخاري وغيره .

وقصة الصديق في « الصحيحين »(١) لماذهب بثلاثة اضياف معه إلى بيته ، وجعل لا يأْكل لقمة إلا ربا من أَسفلها أَكثر منها ، فشبعوا وصارت أَكثر مما هي قبل ذلك . فنظر إليها أبو بكر وامرأَته ؛ فإِذا هي أَكثر مما كانت ، فرفعها إلى رسول الله ﷺ ، وجاءَ إليه أَقوام كثيرون فأَكلوا منها وشبعوا .

وخبيب بن عدي كان أَسيراً عند المشركين بمكة شرَّفها الله تعالى ، وكان يؤتى بعنب يأْكله وليس بمكة عنبة (٢) .

وعامر بن فهيرة قتل شهيداً ، فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه، وكان لما كان قتل رفع ، فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع . وقال عروة : فيرون الملائكة رفعته .

= باب علامات النبوة في الاسلام ، وفي تفسير سورة الفتح ، باب ﴿ هو الذي أنزل السكينة﴾ ، ومسلم رقم (٧٩٥) في صلاة المسافرين : باب نزول السكينة لقارىء القرآن ، والترمذي رقم (٢٨٨٧) في ثواب القرآن : باب ما جاء في فضل سورة الكهف ، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .

(١) رواه البخاري ٦ / ٤٣٦ في أحاديث الأنبياء:باب علامات النبوة في الاسلام ومسلم رقم (٢٠٥٧) في الأشربة : باب إكرام الضيف وفضل إيثاره . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري ٧ /٢٩١ ـ ٢٩٥ في المغازي : باب غزوة الرجيع وأبو داود رقم (٢٦٦٠) و (٢٦٦١) في الجهاد: باب في الرجل يستأسر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وخرجت أُم أَيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماءُ ، فكادت تموت من العطش ، فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة ، سمعت حساً على رأسها ، فرفعته فإذا دلو معلّق ، فشربت منه حتى رويت ، وما عطشت بقية عمرها .

وسفينة مولى رسول الله ﷺ أَخبر الأَسد بأنه رسـول رسول الله ﷺ ، فمشى معه الأَسد حتى أَوصله مقصده[1] .

والبـراءُ بن مالـك كان إذا أَقسم على الله تعـالى أَبرَّ قسمه[2] ، وكان الحـرب إذا اشتدت على المسلمين في الجهاد يقولون : يا براءُ ! أَقسم على ربك، فيقول : يا رب ! أَقسمت عليك لما منحتنا أَكتافهم ، فيهزم العدو ، فلما كان يوم القادسية قال : أَقسمت عليك يا رب لما منحتنا أَكتافهم وجعلتني أَول شهيد ، فمنحوا أَكتافهم وقتل البراءُ شهيداً .

وخالد بن الوليد حاصر حصناً منيعاً ، فقالوا : لا نسلم حتى تشرب السم ، فشربه فلم يضره[3].

---

(١) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٩ / ٣٦٦ من رواية البزار والطبراني ، وقال في آخره :ورجالهما وثقوا .

(٢) رواه الترمذي رقم (٣٨٥٣) في المناقب : باب مناقب البراء بن مالك رضي الله عنه، وإسناده حسن، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) انظر « مجمع الزوائد » ٩ / ٣٥٠

وسعد بن أبي وقاص كان مستجاب الدعوة[1]، ما دعا قط إلا استجيب له ، وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق .

وعمر بن الخطاب لما أرسل جيشاً أَمَّر عليهم رجلاً يسمى سارية ، فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر : يا سارية ! الجبل ، يا سارية الجبل الجبل ، فقدم رسول الجيش فسأله ، فقال يا أمير المؤمنين ! لقينا عدوًا فهزمونا فإذا بصائح : يا سارية الجبل . يا سارية الجبل ، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله[2] .

ولما عذِّبت الزِّنيرة على الاسلام في الله، فأبت إلا الاسلام وذهب بصرها ، قال المشركون : أصاب بصرها اللات والعزَّى ، قالت : كلا والله ، فردَّ الله عليها بصرها .

ودعا سعيد بن زيد على أروى بنت الحكم فأعمى بصرها لما كذبت عليه ، فقال : اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣٧٥٢) في المناقب : باب مناقب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وإسناه صحيح ، ورواه أيضاً ابن حبان في « صحيحه » رقم (٢٢١٥) « موارد والحاكم في « المستدرك » ٣ / ٤٩٩ وصححه ووافقه الذهبي من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٢) أخرجها الواقدي والبيهقي في « الدلائل » وابن الأعرابي في « كرامات الأولياء » قال ابن حجر في « الإصابة »: إسناده حسن .

واقتلها في أرضها ، فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت[1] .

والعلاءُ بن الحضرمي كان عامل رسول الله ﷺ على البحرين ، وكان يقول في دعائه : يا عليم يا حليم يا عليٌّ يا عظيم ، فيستجاب له ، ودعا الله بأَن يسقوا ويتوضؤُوا ، لما عدموا الماءَ ، والإِسقاء لما بعدهم ، فأُجيب . ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم ، فمروا كلهم على الماءِ ما ابتلت سروج خيولهم ، ودعا الله أَن لا يروا جسده إِذا مات ، فلم يجدوه في اللحد ، وجرى مثل ذلك لأَبي مسلم الخولاني الذي أُلقي في النار ، فإِنه مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة ، وهي ترمي بالخشب من مدِّها ، ثم التفت إِلى أَصحابه فقال : تفقدون من متاعكم شيئاً حتى أَدعو الله عز وجل فيه ؟ فقال بعضهم : فقدت مخلاة ، فقال : اتبعني ، فتبعه فوجدها قد تعلَّقت بشيء فأَخذها ، وطلبه الأَسود العنسي لما ادعى النبوة ، فقال له : أَتشهد أَني رسول الله ؟ قال : ما أَسمع ، قال : أَتشهد أَن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، فأَمر بنار فأُلقي فيها ، فوجدوه قائماً يصلي فيها ، وقد صارت عليه برداً وسلاماً .

---

(١) انظر « الإِصابة » في ترجمة سعيد بن زيد رضي الله عنه .

وقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ ، فأَجلسه عمر بينه وبين أَبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهما ، وقال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أَرى من أُمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإِبراهيم خليل الله ، ووضعت له جاريته السم في طعامه فلم يضره ، وخببت امرأَة عليه زوجته ، فدعا عليها فعميت وجاءَت وتابت ، فدعا لها فرد الله عليها بصرها .

وكان عامر بن عبد قيس يأْخذ عطاءَه أَلفي درهم في كمه ، وما يلقاه سائل في طريقه إلا أَعطاه بغير عدد ، ثم يجيءُ إلى بيته فلا يتغير عددها ولا وزنها . ومرَّ بقافلة قد حبسهم الأَسد ، فجاءَ حتى مس بثيابه الأَسد ، ثم وضع رجله على عنقه وقال : إنما أَنت كلب من كلاب الرحمن ، وإني أَستحيي من الله أَن أَخاف شيئاً غيره ، ومرَّت القافلة ، ودعا الله تعالى أَن يهون عليه الطهور في الشتاءِ ، فكان يؤتى بالماءِ له بخار ، ودعا ربه أَن يمنع قلبه من الشيطان وهو في الصلاة ، فلم يقدر عليه .

وتغيب الحسن البصري عن الحجاج ، فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله عز وجل فلم يروه ، ودعا على بعض الخوارج ـ كان يؤذيهم ـ فخرَّ ميتاً .

وصلة بن أَشيم مات فرسه وهو في الغزو ، فقال : اللهم لا تجعل لمخلوق عليَّ منَّة . ودعا الله عز وجل فأَحيا له

فرسه ، فلما وصل إلى بيته قال : يا بني خذ سرج الفرس فانه عارية ، وأخذ سرجه فمات الفرس . وجاع مرة بالأهواز ، فدعا الله عز وجل واستطعمه ، فوقعت خلفه دوخلة[1] رطب في ثوب حرير ، فأكل التمر ، وبقي الثوب عند زوجته زماناً . وجاءه الأسد وهو يصلي في غيضة بالليل ، فلما سلَّم قال له : اطلب الرزق من غير هذا الموضع ، فولَّى الأسد وله زئير .

وكان سعيد بن المسيب في أيام الحرة يسمع الأذان من قبر رسول الله ﷺ في أوقات الصلوات ، وكان المسجد قد خلا ، فلم يبق غيره.

ورجل من النخع كان له حمار فمات في الطريق ، فقال له أصحابه : هلم نتوزع متاعك على رحالنا ، فقال لهم : أمهلوني هنيهة ، ثم توضأ فأحسن الوضوءَ وصلى ركعتين ، ودعا الله تعالى فأحيا له حماره ، فحمل عليه متاعه .

ولما مات أُويس القرني وجدوا في ثيابه أكفاناً لم تكن معه قبل ، ووجدوا له قبراً محفوراً فيه لحد في صخرة ، فدفنوه فيه وكفَّنوه في تلك الأثواب .

وكان عمرو بن عقبة بن فرقد يصلِّي يوماً في شدة الحر

(١) الدوخلة : سفيفة من خوص يوضع فيها التمر .

فأظلته غمامة وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أَصحابه ، لأَنه كان يشترط على أَصحابه في الغزو أَنه يخدمهم .

وكان مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخيِّر إذا دخل بيته سبَّحت معه آنيته ، وكان هو وصاحب له يسيران في ظلمة ، فأَضاءَ لهما طرف السوط .

ولما مات الأَحنف بن قيس ، وقعت قلنسوة رجل في قبره ، فأَهوى ليأْخذها فوجد القبر قد فسح فيه مد البصر .

وكان إبراهيم التيمي يقيم الشهر والشهرين لا يأْكل شيئاً ، وخرج يمتار لأَهله طعاماً فلم يقدر عليه ، فمر بسهلة حمراءَ فأَخذ منها ، ثم رجع إلى أَهله ففتحها فإذا هي حنطة حمراءُ ، فكان إذا زرع منها تخرج السنبلة من أَصلها إلى فرعها حباً متراكباً .

وكان عتبة الغلام سأَل ربه ثلاث خصال : صوتاً حسناً ، ودمعاً غزيراً ، وطعاماً من غير تكلف . فكان إذا قرأَ بكى وأَبكى ، ودموعه جارية دهره ، وكان يأْوي إلى منزله فيصيب فيه قوته ولا يدري من أَين يأْتيه .

وكان عبد الواحد بن زيد أَصابه الفالج ، فسأَل ربه أَن يطلق له أَعضاءَه وقت الوضوءِ ، فكانت وقت الوضوءِ تطلق له أَعضاؤُه ثم تعود بعده .

وهذا باب واسع . قد بسط الكلام على كرامات الأولياءِ في غير هذا الموضع .

وأما ما نعرفه نحن عياناً ونعرفه في هذا الزمان فكثير ، ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل ، فإذا احتاج إليها الضعيف الايمان أو المحتاج ، أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسدُّ حاجته ، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنياً عن ذلك ، فلا يأتيه مثل ذلك ، لعلوِّ درجته وغناه عنها ، لا لنقْص ولايته . ولهذا كانت هذه الأُمور في التابعين أكثر منها في الصحابة ، بخلاف من يجري على يديه الخوارق لهدي الخلق ولحاجتهم ، فهؤلاءِ أعظم درجة .

وهذا بخلاف الأَحوال الشيطانية ، مثل حال عبد الله بن صياد الذي ظهر في زمن النبي ﷺ ، وكان قد ظن بعض الصحابة أَنَّه الدجَّال ، وتوقف النبي ﷺ في أَمره حتى تبين له فيما بعد أَنه ليس هو الدجَّال ، لكنه كان من جنس الكهان . قال له النبي ﷺ : « قد خَبَأْتُ لك خبءاً » قال : الدُّخ الدُّخ . وقد كان خبَّأَ له سورة الدخان ، فقال له النبي ﷺ : « اخسأ فلن تعدوَ قدرك »[1] يعني إنما أَنت من إخوان الكهان ،

(١) رواه مسلم رقم (٢٩٢٤) في الفتن واشراط الساعة: باب ذكر ابن الصياد.

والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع ، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال : « إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قضي في السماءِ، فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان ، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم »[1] .

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينما النبي ﷺ في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار ، فقال النبي ﷺ : « ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه ؟ » قالوا : كنا نقول : يموت عظيم أو يولد عظيم . قال رسول الله ﷺ : « فإنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ؛ ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبَّح حملة العرش ، ثم سبح أهل السماءِ الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماءِ ، ثم يسأل أهل السماءِ السابعة حملة العرش : ماذا قال ربنا ؟ فيخبرونهم ، ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماءِ الدنيا . وتخطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه

---

(١) رواه البخاري ٦/ ٢٢٠ في بدء الخلق : باب ذكر الملائكة .

إلى أوليائهم ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون »[1] .

وفي رواية ، قال معمر : قلت للزهري : أكان يرمي بها في الجاهلية ؟ قال :نعم ،ولكنهاغلظتحين بعث النبي ﷺ . والاسود العنسى الذي ادَّعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأُمور المغيَّبة ، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولـون فيه ، حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبيَّن لها كفره فقتلوه .

وكذلك مسيلمة الكذَّاب كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيَّبات ويعينه على بعض الأمور .

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٢٢٩) في السلام : باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، قال: أخبرني رجل من اصحاب النبي ﷺ من الانصار انهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله ﷺ : ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا ؟ ، قال: الله ورسوله اعلم كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم ومات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ : فانها لا يرمى بها لموت احد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى امراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح اهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ماذا قال،قال،فيستخبر بعض اهل السماوات بعضاً، حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفون الى اوليائهم ويرمون به ، فماجاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون».

وأمثال هؤلاءِ كثيرون ، مثل الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة ، وكانت الشياطين تخرج رجليه من القيد ، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه ، وتسبح الرَّخامة إذا مسحها بيده ، وكان يري الناس رجالاً وركباناً على خيلٍ في الهواءِ ويقول : هي الملائكة ، وإنما كانوا جنًّا ، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه ، فقال له عبد الملك : إنك لم تسمِّ الله فسمى الله فطعنه فقتله .

وهكذا أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردها ، مثل آية الكرسي ، فإنه قد ثبت في « الصحيح » عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما وكله النبي ﷺ بحفظ زكاة الفطر ، فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة وهو يمسكه فيتوب فيطلقه ، فيقول له النبي ﷺ : « ما فعل أسيرك البارحة ؟ » فيقول : زعم أنه لا يعود ، فيقول : « كذبك وإنه سيعود » فلما كان في المرة الثالثة، قال : دعني حتى أُعلِّمك ما ينفعك : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ اللهُ لا إلٰهَ إلَّا هُوَ ٱلْحيُّ القَيُّوم ﴾ إلى آخرها ،[البقرة : ٢٥٥] فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فلما أخبر النبي ﷺ

قال : « صدقك وهو كذوب » وأَخبره أَنه شيطان[1] .

ولهذا إذا قرأَها الإنسان عند الأَحوال الشيطانية بصدق أَبطلتها ، مثل من يدخل النار بحال شيطاني ، أَو يحضر سماع المكاءِ والتصدية فتنزل عليه الشياطين وتتكلم على لسانه كلاماً لا يعلم ، وربما لا يفقه . وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه ، وربما تكلم بأَلسنة مختلفة ، كما يتكلم الجني على لسان المصروع . والانسان الذي حصل له الحال لا يدري بذلك بمنزلة المصروع الذي يتخبَّطه الشيطان من المس ولبسه وتكلم على لسانه ، فإذا أَفاق لم يشعر بشيء مما قال .

ولهذا قد يضرب المصروع ضرباً كثيراً حتى قد يقتل مثله الإنسي أَو يمرضه لو كان هو المضروب وذلك الضرب لا يؤثر في الإنسي ، ويخبر إذا أَفاق أَنه لم يشعر بشيء، لأَن الضرب كان على الجني الذي لبسه .

---

(١) رواه البخاري تعليقا ، ولم يصرح فيه بالتحديث ٤ / ٣٩٦ في الوكالة : باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا فأجازه فهو جائز و ٦ / ٢٤٠ و ٩ / ٥٠ ، قال : وقال عثمان بن الهيثم ، قال الحافظ في « الفتح » : وصله النسائي والاسماعيلي وأبو نعيم من طرق إلى عثمان المذكور . انظر بقية كلام الحافظ في « الفتح » ٤ / ٣٩٨ و « شرح الأذكار» ٣/١٤٦ - ١٤٨ .

ومن هؤلاءِ من يأْتيه الشيطان بأَطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون في ذلك الموضع ، ومنهم من يطير به الجني إلى مكة ، أَو بيت المقدس أَو غيرهما ، ومنهم من يحملهم عشية عرفة ، ثم يعيده من ليلته ، فلا يحج حجاً شرعياً ، بل يذهب بثيابه ، ولا يحرم إذا حاذى الميقات ، ولا يلبِّي ، ولا يقف بمزدلفة ، ولا يطوف بالبيت ، ولا يسعى بين الصفا والمروة ، ولا يرمي الجمار ، بل يقف بعرفة بثيابه ، ثم يرجع من ليلته ، وهذا ليس بحج مشروع باتفاق المسلمين ، بل هو كمن يأْتي الجمعة ويصلي بغير وضوء وإلى غير القبلة ، ومن هؤلاءِ المحمولين ، من حمل مرة إلى عرفات ورجع فرأَى في النوم ملائكة يكتبون الحجاج فقال : أَلا تكتبوني ؟ فقالوا : لست من الحجاج . يعني لم تحج حجاً شرعياً .

وبين كرامات الأَولياءِ ، وبين ما يشبهها من الأَحوال الشيطانية فروق متعددة : منها ، أَن كرامات الأَولياءِ سببها الإِيمان والتقوى ، والأَحوال الشيطانية ، سببها ما نهى الله عنه ورسوله .

وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ

ا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُون ﴾ [الأعراف : ٣٣] فالقول على الله بغير علم ، والشرك والظلم والفواحش ؛ قد حرَّمها الله تعالى ورسوله ، فلا تكون سبباً لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها ، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءَة القرآن، بل تحصل بما يحبه الشيطان ، وبالأمور التي فيها شرك ، كالاستغاثة بالمخلوقات ، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش ، فهي من الأحوال الشيطانية ، لا من الكرامات الرحمانية .

ومن هؤلاءِ من إذا حضر سماع المكاءِ والتصدية يتنزَّل عليه شيطانه حتى يحمله في الهواءِ ويخرجه من تلك الدار ، فإذا حضر رجل من أولياءِ الله تعالى ، طرد شيطانه فيسقط ، كما جرى هذا لغير واحد .

ومن هؤلاءِ من يستغيث بمخلوق إما حي أو ميت ، سواءٌ كان ذلك المخلوق مسلماً أو نصرانياً أو مشركاً ، فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به ، ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث ؛ فيظن أنه ذلك الشخص ، أو هو ملك تصوَّر على صورته، وإنما هو شيطان أضلَّه لما أشرك بالله ،

كما كانت الشياطين تدخل في الأَصنام وتكلِّم المشركين .
ومن هؤلاءِ من يتصوَّر له الشيطان ويقوله له : أَنا الخضر ، وربما أَخبره ببعض الأُمور ، وأَعانه على بعض مطالبه ، كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى .
وكثير من الكفار بأَرض المشرق والمغرب ، يموت لهم الميت ، فيأْتي الشيطان بعد موته على صورته ، وهم يعتقدون أَنه ذلك الميت ، ويقضي الديون ، ويرد الودائع ، ويفعل أَشياءَ تتعلق بالميت ، ويدخل إلى زوجته ويذهب ، وربما يكونون قد أَحرقوا ميتهم بالنار ، كما تصنع كفار الهند ، فيظنون أَنه عاش بعد موته؛ ومن هؤلاءِ شيخ كان بمصر أَوصى خادمه فقال : إِذا أَنا متُّ فلا تدع أَحداً يغسلني ، فأَنا أَجيءُ وأَغسل نفسي ، فلما مات رأَى خادمه شخصاً في صورته ، فاعتقد أَنه هو دخل وغسل نفسه ، فلما قضى ذلك الداخل غسله ، أَي غسل الميت ، غاب ، وكان ذلك شيطاناً ، وكان قد أَضلَّ الميت ، وقال : إِنك بعد الموت تجيءُ فتغسل نفسك ، فلما مات جاءَ أَيضاً في صورته ليغوي الأَحياءَ ، كما أَغوى الميت قبل ذلك .

ومنهم من يرى عرشاً في الهواءِ ، وفوقه نور ، ويسمع من يخاطبه ويقول : أَنا ربك ، فإِن كان من أَهل المعرفة ، علم أَنه شيطان فزجره واستعاذ بالله منه ، فيزول .

ومنهم من يرى أشخاصاً في اليقظة يدَّعي أحدهم أنه نبي أو صدِّيق أو شيخ من الصالحين ، وقد جرى هذا لغير واحد وهؤلاءِ منهم من يرى ذلك عند قبر الذي يزوره ، فيرى القبر قد انشق وخرج إليه صورة ، فيعتقدها الميت ، وإنما هو جني تصوَّر بتلك الصورة . ومنهم من يرى فارساً قد خرج من قبره ، أو دخل في قبره ، ويكون ذلك شيطاناً ، وكل من قال : إنه رأى نبياً بعين رأسه فما رأى إلا خيالاً .

ومنهم من يرى في منامه أن بعض الأكابر ؛ إما الصدِّيق رضي الله عنه أو غيره قد قصَّ شعره ، أو حلقه ، أو ألبسه طاقيته ، أو ثوبه ، فيصبح وعلى رأسه طاقية ، وشعره محلوق ، أو مقصر ، وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصروه ، وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة ، وهم درجات ، والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم وعلى مذهبهم ، والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطىءُ ، فإن كان الإنسي كافراً أو فاسقاً أو جاهلاً ، دخلوا معه في الكفر والفسوق والضلال ، وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر ، مثل الإقسام عليهم بأسماءِمن يعظِّمونه من الجن وغيرهم، ومثل أن يكتب أسماءَ الله أو بعض كلامه بالنجاسة ، أو يقلب فاتحة الكتاب ، أو سورة الإخلاص ، أو آية الكرسي ، أو غيرهنَّ ، ويكتبهنَّ

بنجاسة فيغوِّرون له الماءَ ، وينقلونه بسبب ما يرضيهم به من الكفر ، وقد يأتونه بمن يهواه من امرأة أو صبي ؛ إما في الهواءِ ، وإما مدفوعاً ملجأً إليه . إلى أمثال هذه الأمور التي يطول وصفها. والايمان بها ؛ إيمان بالجبت والطاغوت والجبت : السحر . والطاغوت : الشياطين والأصنام وإن كان الرجل مطيعاً لله ورسوله باطناً وظاهراً ؛ لم يمكنهم الدخول معه في ذلك ، أو مسالمته .

ولهذا لما كانت عبادة المسلمين المشروعة في المساجد التي هي بيوت الله ، كان عمَّار المساجد أبعد عن الأحوال الشيطانية ، وكان أهل الشرك والبدع يعظمون القبور ومشاهد الموتى ، فيدعون الميت أو يدعون به ، أو يعتقدون أن الدعاءَ عنده مستجاب ـ أقرب إلى الأحوال الشيطانية ـ فإنه ثبت في « الصحيحين » عن النبي ﷺ أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[1] .

وثبت في « صحيح مسلم » عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس ليال : « إن أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وذات يده أبو بكر، ولو كنت متَّخذاً خليلاً من أهل الأرض لاتخذت

---

(١) رواه البخاري ١/٤٤٤ في الصلاة : باب الصلاة في البيعة ، ومسلم رقم (٥٣٠) في المساجد : باب النهي عن بناء المساجد على القبور ، وأبو داود رقم (٣٢٢٧) في الجنائز : باب في البناء على القبر ، والنسائي ٤ / ٩٥ و ٩٦ في الجنائز : باب اتخاذ القبور مساجد . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدَّت ، إلا خوخة أبي بكر ، إن من كان قبلكم يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك »[1] .

وفي « الصحيحين » عنه أنه ذُكر له في مرضه كنيسة بأرض الحبشة ، وذكروا من حسنها وتصاوير فيها ، فقال : « إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوَّروا فيها تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة »[2] .

وفي « المسند » و « صحيح ابي حاتم » عنه ﷺ قال : « إن من شرار الخلق من تدركهم الساعة وهم أحياءُ ، والذين اتخذوا القبور مساجد »[3] .

---

(١) رواه البخاري ٧/ ١٠ و ١١ في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : سدّوا الابواب إلا باب أبي بكر ، وفي المساجد : باب الخوجة والممر في المسجد ، ومسلم رقم (٢٣٨٢) في فضائل الصحابة : باب من فضائل أبي بكر رضي الله عنه ، والترمذي رقم (٣٦٦١) في المناقب : باب مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري ١ / ٤٣٨ في الصلاة : باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد ، وباب الصلاة في البيعة ، وفي الجنائز : باب بناء المسجد على القبر ، وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ ، وباب هجرة الحبشة ، ومسلم رقم (٥٢٨) في المساجد : باب النهي عن بناء المساجد على القبور ، والنسائي ٢ / ٤١ و٤٢ في المساجد : باب النهي عن اتخاذ القبور مساجد .

(٣) رواه احمد في «المسند» ١ /٤٣٥ ، وابو نعيم في «اخبار اصبهان »١ /١٤٢ وابن أبي شيبة ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٢ /٢٧ وقال : رواه الطبراني في « الكبير » واسناده حسن :

وفي « الصحيح » عنه ﷺ أنه قال : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها »(١) .

وفي « الموطأ » عنه ﷺ أنه قال : « اللهم لا تجعلِ قبري وثناً يُعبد ، اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »(٢) .

وفي « السنن » عنه ﷺ أنه قال : « لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا عليَّ حيثما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغني »(٣) .

وقال ﷺ : « ما من رجل يسلِّم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ روحي حتى أردَّ عليه السلام »(٤) .

---

(١) رواه مسلم رقم (٩٧٢) في الجنائز : باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه ، وأبو داود رقم (٣٢٢٩) في الجنائز : باب في كراهية القعود على القبر ، والترمذي رقم (١٠٥٠) في الجنائز : باب ما جاء في كراهية المشي على القبور والجلوس عليها والصلاة اليها ، والنسائي ٢ / ٦٧ في القبلة : باب النهي عن الصلاة إلى القبر . من حديث أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه .

(٢) رواه مالك في « الموطأ » ١ / ١٧٢ في قصر الصلاة : باب جامع الصلاة مرسلا من حديث عطاء بن يسار ، وقد صح موصولا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه أبو داود رقم (٢٠٤٢) في المناسك : باب زيارة القبور ، وأحمد في « المسند » ٢ /٣٦٧ من حديث أبي هريرة ، وأخرجه أيضاً اسماعيل بن اسحاق القاضي في فضل الصلاة على النبي ﷺ من حديث علي بن الحسين رقم (٢٠) ومن حديث الحسن بن علي رقم ٣٠ ، وهو حديث حسن ، حسنه الحافظ في « تخريج الأذكار » .

(٤) رواه أبو داود رقم (٢٠٤١) في المناسك : باب زيارة القبور من حديث أبي هريرة ، ورواه أيضاً أحمد في « المسند » ٢ /٥٢٧ ، وإسناده حسن .

وقال ﷺ : « إن الله وكَّل بقبري ملائكة يُبلغونني عن أُمتي السلام »(١) .

وقال ﷺ : « أَكثروا عليَّ من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة ، فإن صلاتكم معروضة عليَّ » قالوا : يا رسول الله ! كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرمت ؟ - يقولون : بليت - فقال : « إن الله حرَّم على الأَرض أَن تأْكل لحوم الأَنبياءِ »(٢) .

وقد قال الله تعالى في كتابه عن المشركين من قوم نوح عليه السلام : ﴿ وَقَالُوا : لا تَذَرُنَّ آلِهتَكُمْ وَلَا تَذَرنَّ وَدّاً وَلا

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٦٢/١٠ من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما بلفظ «إن الله وكل بقبري ملكاً أعطاه أسماع الخلائق، فلا يصلي عليَّ أحد الى يوم القيامة الا أبلغني باسمه واسم ابيه: هذا فلان بن فلان قد صلى عليك» وقال: رواه البزار، وفيه ابن الحميري، واسمه عمران ، قال البخاري : لا يتابع على حديثه، وقال صاحب «الميزان»: لا يعرف، وفيه ايضاً نعيم بن ضمضم، ضعيف .

وقد جاء الحديث من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ «إن لله ملائكة سياحين في الارض، يبلغوني عن أمتي السلام» وهو حديث صحيح. رواه احمد في «المسند» ٣٨٧/١ و ٤٤١ و ٤٥٢ ، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٢٣٩٣) «موارد» والدارمي ٣١٧/٢ في الرقاق: باب في فضل الصلاة على النبي ﷺ والنسائي ٤٣/٣ في السهو: باب السلام على النبي ﷺ، والحاكم في «المستدرك» ٤٢١/٢ وصححه، ووافقه الذهبي، وهوكما قالا .

(٢) رواه أبو داود رقم (١٠٤٧) في الصلاة : باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة ، والنسائي ٣ /٩١ و ٩٢ في الجمعة : باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه، وإسناده صحيح .

سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ [نوح : ٢٣] ، قال ابن عباس وغيره من السلف: هؤلاءِ قوم كانوا صالحين من قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوَّروا تماثيلهم فعبدوهم ، فكان هذا مبدأ عبادة الأَوثان .

فنهى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد ليسد باب الشرك كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها ، لأَن المشركين يسجدون للشمس حينئذ ، والشيطان يقارنها وقت الطلوع ووقت الغروب(١) ، فتكون في الصلاة حينئذ مشابهة لصلاة المشركين ، فسدَّ هذا الباب .

والشيطان يضل بني آدم بحسب قدرته ، فمن عبد الشمس والقمر والكواكب ودعاها كما يفعل أَهل دعوة الكواكب ، فإِنه ينزل عليه شيطان يخاطبه ويحدثه ببعض الأُمور ، ويسمون ذلك روحانية الكواكب ، وهو شيطان ، والشيطان وإِن أَعان الانسان على بعض مقاصده ، فإِنه يضره أَضعاف ما ينفعه ، وعاقبة من أَطاعه إِلى شر ، إِلا أَن يتوب الله عليه .

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » رقم (٨٣٣) في صلاة المسافرين : باب لا تتحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا تتحروا طلوع الشمس ولا غروبها ، فتصلوا عند ذلك » والنسائي ١ / ٢٧٩ في المواقيت : باب النهي عن الصلاة بعد العصر بلفظ « لا تتحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها ، فإنها تطلع بين قرني شيطان » .

وكذلك عبّاد الأصنام قد تخاطبهم الشياطين ، وكذلك من استغاث بميت أو غائب ، وكذلك من دعا الميت أو دعا به ، أو ظن أن الدعاءَ عند قبره أفضل منه في البيوت والمساجد ، ويروون حديثاً هو كذب باتفاق أهل المعرفة وهو : « إذا أعيتكم المعرفة فعليكم بأصحاب القبور » . وإنما هذا وضع من فتح باب الشرك .

ويوجد لأهل البدع وأهل الشرك المتشبهين بهم من عبّاد الأصنام والنصارى والضلّال من المسلمين أحوال عند المشاهد يظنونها كرامات وهي من الشياطين ، مثل أن يضعوا سراويل عند القبر فيجدونه قد انعقد أو يوضع عنده مصروع فيرون شيطانه قد فارقه يفعل الشيطان هذا ليضلّهم ، وإذا قرأت آية الكرسي هناك بصدق بطل هذا ، فإن التوحيد يطرد الشيطان . ولهذا حُمل بعضهم في الهواءِ فقال : لا إله إلا الله فسقط ، ومثل أن يرى أحدهم أن القبر قد انشقَّ وخرج منه إنسان فيظنه الميت وهو شيطان .

وهذا باب واسع لا يتسع له هذا الموضع .

ولما كان هذا الانقطاع إلى المغارات والبوادي من البدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله ، صارت الشياطين كثيراً ما تأوي المغارات والجبال ، مثل مغارة الدم التي بجبل قاسيون ، وجبل لبنان الذي بساحل الشام ، وجبل الفتح

بأسوان بمصر ، وجبال بالروم وخراسان ، وجبال بالجزيرة ، وغير ذلك ، وجبل اللكام ، وجبل الأحيش ، وجبل سولان قرب أردبيل ، وجبل شهنك عند تبريز ، وجبل ماشكو عند أقشوان ، وجبل نهاوند ، وغير ذلك من الجبال التي يظن بعض الناس أن بها رجالاً من الصالحين من الإنس ، ويسمونهم : رجال الغيبْ ، وإنما هناك رجال من الجن : فالجن رجال ، كما أن الإنس رجال ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ ٱلإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رهَقاً ﴾ [الجن : ٧] .

ومن هؤلاءِ من يظهر بصورة رجل شعراني ، جلده يشبه جلد الماعز ، فيظن من لا يعرفه أنه إنسي ، وإنما هو جني . ويقال : بكل جبل من هذه الجبال الأربعون الأبدال . وهؤلاءِ الذين يظن أنهم الأبدال هم جن بهذه الجبال ، كما يعرف ذلك بطرق متعددة .

وهذا باب لا يتسع هذا الموضع لبسطه ، وذكر ما نعرفه من ذلك ، فإنا قد رأينا وسمعنا من ذلك ما يطول وصفه في هذا المختصر الذي كتب لمن سأل أن نذكر له من الكلام على أولياءِ الله تعالى ما يعرف به جمل ذلك .

والناس في خوارق العادات على ثلاثة أقسام : قسم يكذِّب وجود ذلك لغير الأنبياءِ ؛ وربما صدق به مجملاً ،

وكذّب ما يذكر له عن كثير من الناس ، لكونه عنده ليس من الأَولياءِ ، ومنهم من يظن أَن كل ما كان له نوع من خرق العادة كان وليًّا لله وكلا الأَمرين خطأ . ولهذا تجد أَن هؤلاءِ يذكرون أَن للمشركين وأَهل الكتاب نصراء يعينونهم على قتال المسلمين ، وأَنهم من أَولياءِ الله . وأُولئك يكذبون أَن يكون معهم من له خرق عادة ، والصواب القول الثالث ، وهو أَن معهم من ينصرهم من جنسهم ، لا من أَولياءِ الله عزوجل، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُم ﴾ [المائدة : ٥١] .

وهؤلاءِ العبَّاد والزهَّاد الذين ليسوا من أَولياءِ الله المتقين المتبعين للكتاب والسنة ، تقترن بهم الشياطين ، فيكون لأَحدهم من الخوارق ما يناسب حاله ، لكن خوارق هؤلاءِ يعارض بعضها بعضاً ، وإِذا حصل من له تمكن من أَولياءِ الله تعالى أَبطلها عليهم ، ولا بد أَن يكون في أَحدهم من الكذب جهلاً أَو عمداً ، ومن الإِثم ما يناسب حال الشياطين المقترنة بهم ليفرِّق الله بذلك بين أَوليائه المتقين ، وبين المتشبهين بهم من أَولياءِ الشياطين . قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلَ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٢] والأَفاك : الكذاب. والأَثيم : الفاجر .

ومن أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية ؛ سماع الغناءِ والملاهي وهو سماع المشركين . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ ٱلبيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال : ٣٥] .

قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم وغيرهما من السلف : التصدية : التصفيق باليد ، والمكاءُ : مثل الصفير . فكان المشركون يتخذون هذا عبادة .

وأما النبي ﷺ وأصحابه فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءَة والذكر ونحو ذلك ، والاجتماعات الشرعية ، ولم يجتمع النبي ﷺ وأصحابه على استماع غناء قط ، لا بكف ، ولا بدف ، ولا تواجد ، ولا سقطت بردته ، بل كل ذلك كذب باتفاق أهل العلم بحديثه .

وكان أصحاب النبي ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ ، والباقون يستمعون ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري : ذكِّرْنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون .

ومرَّ النبي ﷺ بأبي موسى الأشعري وهو يقرأُ فقال له : مررت بك البارحة وأنت تقرأ ، فجعلت أستمع لقراءَتك

فقال : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً[1] ، أي لحسنته لك تحسيناً .

كما قال النبي ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم »[2] .

وقال ﷺ : « لله أشد أذناً ـ أي استماعاً ـ إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته »[3] .

وقال ﷺ لابن مسعود : « اقرأ عليَّ القرآن » فقال : أقرأ

---

(١) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد» ٧ / ١٧١ أن النبيﷺ وعائشة مرا بأبي موسى وهو يقرأ في بيته ، فقاما يستمعان لقراءته ، ثم انهما مضيا ، فلما اصبح لقي أبا موسى رسول الله ﷺ ، فقال: «يا ابا موسى مررت بك البارحة ومعي عائشة وأنت تقرأ في بيتك، فقمنا واستمعنا، فقال له أبو موسى : أما إني يا رسول الله لو علمت لحبرته لك تحبيراً».

قال الهيثمي : رواه ابو يعلى ، وفيه خالد بن نافع الاشعري، وهو ضعيف، قال الحافظ في «الفتح» ٩ / ٨١ بعد ما ذكر حديث أبي يعلى هذا ، وسكت عليه : ولابن سعد من حديث أنس على شرط مسلم ان ابا موسى قام ليلة يصلي ، فسمع أزواج النبي ﷺ صوته، وكان حلو الصوت ، فقمن يستمعن ، فلما أصبح قيل له ، فقال: لو علمت لحبرته لهن تحبيراً ، قال: وللروياني من طريق مالك بن مغول عن عبدالله بن بريدة عن ابيه نحو سياق سعيد بن أبي يعلى ، وقال فيه: لو علمت ان رسول الله ﷺ يستمع قراءاتي لحبرتها«اهـ . فالحديث حسن بشواهده .

(٢) رواه أبو داود رقم (١٤٦٨) في الصلاة : باب استحباب الترتيل في القراءة ، والنسائي ٢ / ١٧٩ و ١٨٠ في الصلاة : باب تزيين القرآن بالصوت ، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، وإسناده صحيح ، وأخرجه الدارمي ٢ / ٤٧٤، وأحمد في « المسند » ٤ /٢٨٣ و ٢٨٥ و ٢٩٦ و ٣٠٤ ، وابن ماجة رقم (١٣٤٢) .

(٣) رواه ابن ماجة رقم (١٣٤٠) في إقامة الصلاة والسنة فيها : باب في حسن الصوت بالقرآن ، قال في « الزوائد » إسناده حسن .

عليك القرآن ، وعليك أنزل ، فقال : « إني أحب أن أسمعه من غيري » فقرأت عليه سورة ﴿النساء﴾ ، حتى انتهيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ [النساء : ٤١] قال : « حسبك » ، فإذا عيناه تذرفان من البكاء[1] .

ومثل هذا السماع ؛ هو سماع النبيين وأتباعهم ، كما ذكر الله ذلك في القرآن فقال : ﴿ أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِياً ﴾ [مريم : ٥٨] .

وقال في أهل المعرفة : ﴿ وإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَىٰ الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة : ٨٣] .

ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الايمان ، واقشعرار الجلد ، ودمع العين ، فقال تعالى :

---

(١) البخاري ٩ /٨٥ في فضائل القرآن : باب البكاء عند قراءة القرآن ، وباب من أحب أن يسمع القرآن من غيره ، وباب قول المقرىء للقارىء : حسبك ؛ ومسلم رقم (٨٠٠) في صلاة المسافرين : باب فضل استماع القرآن ، والترمذي رقم (٣٠٢٧) و (٣٠٢٨) في تفسير القرآن : باب ومن سورة النساء ، وأبو داود رقم (٣٦٦٨) في العلم : باب في القصص ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر : ٢٣] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٢ - ٤] .

وأما السماع المحدث ؛ سماع الكف والدف والقصب ، فلم تكن الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأكابر من أئمة الدين ، يجعلون هذا طريقاً إلى الله تبارك وتعالى ، ولا يعدونه من القرب والطاعات ، بل يعدونه من البدع المذمومة ؛ حتى قال الشافعي : خلَّفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة ، يسمونه التغيير ، يصدون به الناس عن القرآن . وأولياءُ الله العارفون يعرفون ذلك ، ويعلمون أن للشيطان فيه نصيباً وافراً . ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم .

ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله ، كان نصيب الشيطان فيه أكثر ، وهو بمنزلة الخمر ، [بل هو] يؤثر في النفوس أعظم من تأثير الخمر ، ولهذا إذا قويت سكرة أهله ؛ نزلت عليهم الشياطين ، وتكلمت على ألسنة بعضهم ، وحملت بعضهم في الهواءِ، وقد تحصل عداوة

بينهم ، كما تحصل بين شرّاب الخمر ، فتكون شياطين أحدهم أقوى من شياطين الآخر فيقتلونه . ويظن الجهَّال أن هذا من كرامات أولياءِ الله المتقين ، وإنما هذا مبعد لصاحبه عن الله ، وهو من أحوال الشياطين ، فإن قتل المسلم لا يحل إلا بما أحلَّه الله ، فكيف يكون قتل المعصوم ممايكرم الله به أولياءه ؟ ! وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة ، فلم يكرم الله عبداً بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه ، ويزيده مما يقربه إليه ويرفع به درجته ، وذلك أن الخوارق منها ما هو من جنس العلم ، كالمكاشفات ، ومنها ما هو من جنس القدرة والملك ، كالتصرفات الخارقة للعادات ، ومنها ما هو من جنس الغنى ، من جنس ما يعطاه الناس في الظاهر ، من العلم ، والسلطان ، والمال ، والغنى .

وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور ، إن استعان به على ما يحبه الله ويرضاه ، ويقربه إليه ، ويرفع درجته ، ويأمر الله به ورسوله ، ازداد بذلك رفعة وقرباً إلى الله ورسوله ، وعلت درجته . وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله ، كالشرك ، والظلم ، والفواحش ، استحق بذلك الذم والعقاب ، فإن لم يتداركه الله تعالى بتوبة أو حسنات ماحية ، وإلّا كان كأمثاله من المذنبين ، ولهذا كثيراً ما يعاقب أصحاب الخوارق ، تارة بسلبها ، كما يعزل الملك عن ملكه ، ويسلب العالم علمه ، وتارة بسلب التطوعات ، فينقل

من الولاية الخاصة إلى العامة ، وتارة ينزل إلى درجة الفسَّاق ، وتارة يرتدُّ عن الاسلام ، وهذا يكون فيمن له خوارق شيطانية ، فإن كثيراً من هؤلاءِ يرتد عن الاسلام ، وكثيراً منهم لا يعرف أن هذه شيطانية ، بل يظنها من كرامات أولياءِ الله ، ويظن من يظن منهم أن الله عز وجل ، إذا أعطى عبداً خرق عادة لم يحاسبه على ذلك ، كمن يظن أن الله إذا أعطى عبداً ملكاً ومالاً وتصرفاً ؛ لم يحاسبه عليه ، ومنهم من يستعين بالخوارق على أمور مباحة لا مأمور بها ولا منهي عنها ، فهذا يكون من عموم الأولياءِ ، وهم الأبرار المقتصدون ، وأما السابقون المقربون فأعلى من هؤلاءِ ، كما أن العبد الرسول أعلى من النبي الملك .

ولما كانت الخوارق كثيراً ما ينقص بها درجة الرجل ، كان كثير من الصالحين يتوب من مثل ذلك ، ويستغفر الله تعالى ، كما يتوب من الذنوب ، كالزنا ، والسرقة ، وتعرض على بعضهم فيسأل الله زوالها ، وكلهم يأمر المريد السالك أن لا يقف عندها ، ولا يجعلها همته ، ولا يتبجج بها ، مع ظنهم أنها كرامات ، فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تغويهم بها ؟ ! فإني أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع ، وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها ، وأعرف من يخاطبهم الحجر والشجر ، وتقول :هنيئاً لك ياولي الله ، فيقرأ آية الكرسي ، فيذهب ذلك . وأعرف من يقصد

صيد الطير، فتخاطبه العصافير وغيرها، وتقول: خذني حتى يأكلني الفقراءُ، ويكـون الشيطان قد دخل فيها، كما يدخل في الإنس، ويخاطبه بذلك، ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق، فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح، وبالعكس، وكذلك في أبواب المدينة، وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة، أو تريه أنواراً، وتحضر عنده من يطلبه، ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه، فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة، ذهب ذلك كله.

وأعرف من يخاطبه مخاطب ويقول له: أنا من أمر الله، ويعده بأنه المهدي الذي بشّر به النبي ﷺ، ويظهر له الخوارق، مثل أن يخطر بقلبه تصرف في الطير والجراد في الهواءِ، فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يميناً وشمالاً، ذهب حيث أراد، وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي، أو نومه، أو ذهابه، حصل له ما أراد من غير حركة منه في الظاهر، وتحمله إلى مكة، وتأتي به، وتأتيه بأشخاص في صورة جميلة، وتقول له: هذه الملائكة الكروبيون أرادوا زيارتك، فيقول في نفسه: كيف تصوروا بصورة المردان، فيرفع رأسه فيجدهم بلحى، ويقول له: علامة أنك أنت المهدي أنك تنبت في جسدك شامة، فتنبت ويراها، وغير ذلك، وكله من مكر الشيطان.

وهذا باب واسع ، لو ذكرت ما أعرف منه لاحتاج إلى مجلد كبير . وقد قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلإِنْسَانُ إِذَا ما ٱبْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرمهُ وَنعَّمَهُ فيقولُ رَبِّي أَكَرمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ ﴾ [الفجر : ١٥ ـ ١٦] . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ كلاَّ ﴾ ولفظ (كلا) فيها زجر وتنبيه ، زجر عن مثل هذا القول ، وتنبيه على ما يخبر به ، ويأمر به بعده ، وذلك أنه ليس كل ما حصل له نعم دنيوية تعدُّ كرامة ، يكون الله عزَّ وجل مكرماً له بها ، ولا كل من قدِّر عليه ذلك يكون مهيناً له بذلك ، بل هو سبحانه يبتلي عبده بالسراءِ والضراءِ ، فقد يعطي النعم الدنيوية لمن لا يحبه ، ولا هو كريم عنده ، ليستدرجه بذلك ، وقد يحمي منها من يحبه ويواليه ، لئلا ينقص بذلك مرتبته عنده ، أو يقع بسببها فيما يكرهه منه .

وأيضاً كرامات الأولياءِ لا بد أن يكون سببها الإيمان والتقوى ، فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان ، فهو من خوارق أعداءِ الله لا من كرامات أولياءِ الله ، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة ، والقراءَة والذكر ، وقيام الليل ، والدعاءِ ، وإنما تحصل عند الشرك ، مثل دعاءِ الميت ، والغائب ، أو بالفسق والعصيان وأكل المحرَّمات ، كالحيات ، والزنابير ، والخنافس ، والدم ، وغيره من

النجاسات ، ومثل الغناءِ ، والرقص ، لا سيما مع النسوة الأجانب والمردان ، وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن ، وتقوى عند سماع مزامير الشيطان ، فيرقص ليلاً طويلاً ، فإذا جاءَت الصلاة صلّى قاعداً ، أو ينقر الصلاة نقر الديك ، وهو يبغض سماع القرآن ، وينفر عنه ، ويتكلفه ، ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده ، ويحب سماع المكاءِ والتصدية، ويجد عنده مواجيد . فهذه أحوال شيطانية ، وهو ممن يتناوله قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : ٣٦] .

فالقرآن هو ذكر الرحمن ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤ - ١٢٦] يعني تركت العمل بها .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : تكفَّل الله لمن قرأ كتابه وعمل بما فيه ، أن لا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة ، ثم قرأ هذه الآية .

فصل

[في عموم رسالة محمد ﷺ للثقلين]

ومما يجب أن يعلم أن الله بعث محمداً ﷺ إلى جميع

الإنس والجن ، فلم يبق إنسي ولا جني إلا وجب عليه الايمان بمحمد ﷺ واتباعه ، فعليه أن يصدِّقه فيما أخبر ، ويطيعه فيما أمر . ومن قامت عليه الحجة برسالته فلم يؤمن به ، فهوَ كافر ، سواءٌ كان إنسياً أو جنياً .

ومحمد ﷺ مبعوث إلى الثقلين باتفاق المسلمين ، وقد استمعت الجن للقرآن ، وولَّوا إلى قومهم منذرين لما كان النبي ﷺ يصلي بأصحابه ببطن نخلة لما رجع من الطائف ، وأخبره الله بذلك في القرآن بقوله : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنا كِتَاباً أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ ٱلْحَقِّ وإِلَىَ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٩ ـ ٣٢] وأنزل الله تعالى بعد ذلك : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَىٰ الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرِبِّنَا أَحداً * وَأَنَّهُ تَعالَىٰ جَدُّ رَبّنا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً * وَأنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَىٰ اللهِ شَطَطاً * وَأنَّا ظَنَنا أَنْ لَنْ تَقُولَ ٱلْإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰ ٱللهِ كَذِباً * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ ٱلْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ ٱلْجِنِّ فَزَادوهُمْ رَهقاً ﴾ [الجن : ١-٦]

أي السفيه منا في أظهر قولي العلماءِ .

وقال غير واحد من السلف : كان الرجل من الإنس إذا نزل بالوادي قال : أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر سفهاءِ قومه ، فلما استغاثت الإنس بالجن ، ازدادت الجن طغياناً وكفراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ ٱلإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً * وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ﴾ [الجن : ٦ ـ ٨] وكانت الشياطين ترمى بالشهب قبل أن ينزل القرآن ، لكن كانوا أحياناً يسترقون السمع قبل أن يصل الشهاب إلى أحدهم ، فلما بعث محمد ﷺ ملئت السماءُ حرساً شديداً وشهباً ، وصارت الشهب مرصدة لهم قبل أن يسمعوا ، كما قالوا : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً ﴾ [الجن : ٩] وقال تعالى في الآية الأُخرى : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَستَطِيعونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لمعْزُولُون ﴾ [الشعراء : ٢١٠ـ٢١٢]قالوا : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْري أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ في الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾ [الجن : ١٠ ـ ١١] أي على مذاهب شتَّى ، كما قال العلماءُ : منهم المسلم والمشرك ، واليهودي والنصراني ، والسني

والبدعي . ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ في ٱلأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً ﴾ [الجن : ١٢] أخبروا أنهم لا يعجزونه ؛ لا إن أقاموا في الأرض ولا إن هربوا منه : ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهُدىٰ آمَنَّا بِهِ فمنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً * وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ ومِنَّا ٱلْقَاسِطُون ﴾ [الجن : ١٣ - ١٤] . أي الظالمون .

يقال : أقسط إذا عدل ، وقسط : إذا جار وظلم ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهنمَ حَطَبَاً * وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَىٰ الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ ربِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً * وَأَنْ ٱلْمَسَاجِدَ للهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً * وَأَنَّهُ لَما قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيهِ لِبَدًا * قُلْ إِنَّما أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً * قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضرًّا وَلا رَشَدَاً * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ ٱللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ [الجن : ١٤ - ٢٢] أي ملجأ ومعاذاً ﴿ إِلَّا بَلاغاً مِنَ ٱللهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَار جهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها أَبَداً * حَتَّى إِذَا رَأَوا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ﴾ [الجن : ٢٣ - ٢٤] .

ثم لما سمعت الجن القرآن أتوا إلى النبي ﷺ وآمنوا به ،

وهم جن نصيبين ، كما ثبت ذلك في « الصحيح » من حديث ابن مسعود[1] .

وروي أنه قرأ عليهم سورة الرحمن ، وكان إذا قال : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان ﴾ [الرحمن : ١٣] قالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد[2] .

ولما اجتمعوا بالنبي ﷺ سألوه الزاد لهم ولدوابهم ، فقال : « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحماً ، وكل بعرة علف لدوابكم » . قال النبي ﷺ : « فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم من الجن[3] » وهذا النهي ثابت عنه من وجوه متعددة ، وبذلك احتج العلماءُ على النهي عن الاستنجاءِ بذلك ، وقالوا : فإذا منع من الاستنجاءِ بما للجن ولدوابهم ، فما أُعد للإنس ولدوابهم

---

(١) رواه البخاري ٨/٥١٣، ٥١٤ في تفسير سورة الجن، وفي صفة الصلاة ، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر ، ومسلم رقم (٤٤٩) في الصلاة : باب الجهر بالقراءة في الصبح ، والترمذي رقم (٣٣٢٠) في التفسير : باب ومن سورة الجن ،

(٢) رواه الترمذي (٣٢٨٧) في التفسير : باب ومن سورة الرحمن من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وقال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد . أقول : والوليد مدلس وقد عنعن ، وزهير بن محمد رواية أهل الشام عنه غير مستقيمة وهذا منها ، ورواه الحاكم ٢ /٤٧٣ ، وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) رواه مسلم رقم (٤٥٠) في الصلاة : باب الجهر بالقراءة في الصبح ، والترمذي رقم (٣٢٥٤) في التفسير : باب ومن سورة الأحقاف ، وأبو داود رقم (٨٥) في الطهارة : باب الوضوء بالنبيذ ، من حديث علقمة عن ابن مسعود رضي الله عنه .

من الطعام والعلف أولى وأحرى .

ومحمد ﷺ أُرسل إلى جميع الانس والجن ، وهذا أعظم قدراً عند الله تعالى من كون الجن سخروا لسليمان عليه السلام ، فإنهم سخروا له يتصرف فيهم بحكم الملك ، ومحمد ﷺ أُرسل إليهم يأمرهم بما أمر الله به ورسوله ، لأنه عبد الله ورسوله ، ومنزلة العبد الرسول فوق منزلة النبي الملك .

وكفار الجن يدخلون النار بالنص والإجماع ، وأما مؤمنوهم ، فجمهور العلماءِ على أنهم يدخلون الجنة . وجمهور العلماءِ على أن الرسل من الإنس ، ولم يبعث من الجن رسول ؛ لكن منهم النذُر ، وهذه المسائل لبسطها موضع آخر .

والمقصود هنا أن الجن مع الإنس على أحوال : فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه ، ويأمر الانس بذلك ، فهذا من أفضل أولياءِ الله تعالى ، وهو في ذلك من خلفاءِ الرسول ﷺ ونوابه ، ومن كان يستعمل الجن في أمور مباحة له ، فهو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة له ، وهذا كأن يأمرهم بما يجب عليهم ،وينهاهم عما حرم عليهم ، ويستعملهم في مباحات له ، فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك .

هذا إذا قدر أنه من أولياءِ الله تعالى ، فغايته أَن يكون في عموم أَولياءِ الله تعالى ، مثل النبي الملك مع العبد الرسول ، كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أَجمعين .

ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى الله عنه ورسوله . إما في الشرك ، وإما في قتل معصوم الدم ، أَو في العدوان عليهم بغير القتل ، كتمريضه وإنسائه العلم ، وغير ذلك من الظلم ؛ وإما في فاحشة ، كجلب من يطلب فيه الفاحشة ، فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان ، ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر ، وإن استعان بهم على المعاصي فهو عاصٍ ، إما فاسق ، وإما مذنب غير فاسق .

وإن لم يكن تامَّ العلم بالشريعة فاستعان بهم فيما يظن أَنه من الكرامات ، مثل أَن يستعين بهم على الحج ، أَو أَن يطيروا به عند السماع البدعي ، أَو أَن يحملوه إلى عرفات ولا يحج الحج الشرعي الذي أَمر الله به ورسوله ، وأَن يحملوه من مدينة إلى مدينة ، ونحو ذلك ، فهذا مغرور قد مكروا به .

وكثير من هؤلاءِ قد لا يعرف أَن ذلك من الجن ؛ بل قد سمع أَن أَولياءَ الله لهم كرامات خوارق للعادات ، وليس

عندهم من حقائق الايمان ومعرفة القرآن ما يفرِّق به بين الكرامات الرحمانية ، وبين التلبيسات الشيطانية ، فيمكرون به بحسب اعتقاده ، فإن كان مشركاً يعبد الكواكب والأوثان ، أوهموه أنه ينتفع بتلك العبادة ، ويكون قصده الاستشفاع والتوسل ممن صوَّر ذلك الصنم على صورته من ملك أو نبي أو شيخ صالح ، فيظن أنه يعبد ذلك النبي أو الصالح ، وتكون عبادته في الحقيقة للشيطان ، قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْملائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوايَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤٠ ـ ٤١] .

ولهذا كان الذين يسجدون للشمس والقمر والكواكب يقصدون السجود لها ، فيقارنها الشيطان عند سجودهم ليكون سجودهم له ، ولهذا يتمثل الشيطان بصورة من يستغيث به المشركون ، فإن كان نصرانياً واستغاث بجرجس أو غيره ، جاءَ الشيطان في صورة جرجس أو من يستغيث به . وإن كان منتسباً إلى الاسلام واستغاث بشيخ يحسن الظن به من شيوخ المسلمين ، جاءَ في صورة ذلك الشيخ . وإن كان من مشركي الهند ، جاءَ في صورة من يعظمه ذلك المشرك .

ثم إن الشيخ المستغاث به ، إن كان ممن له خبرة بالشريعة ، لم يعرفه الشيطان أنه تمثل لأصحابه المستغيثين

به ، وإن كان الشيخ ممن لا خبرة له ، أخبره بأقوالهم ، ونقل أقوالهم له ، فيظن أولئك أن الشيخ سمع أصواتهم من البعد وأجابهم ، وإنما هو يتوسط الشيطان .

ولقد أخبر بعض الشيوخ الذين كان قد جرى لهم مثل هذا بصورة مكاشفة ومخاطبة فقال : يريني الجن شيئاً برّاقاً مثل الماءِ والزجاج ، ويمثّلون له فيه ما يطلب منه الإخبار به ، قال : فأخبر الناس به ، ويوصلون إليَّ كلام من استغاث بي من أصحابي فأجيبه ، فيوصلون جوابي إليه .

وكان كثير من الشيوخ الذين حصل لهم كثير من هذه الخوارق ـ إذا كذّب بها من لم يعرفها وقال : إنكم تفعلون هذا بطريق الحيلة ، كما يدخل النار بحجر الطلق وقشور النارنج ، ودهن الضفادع ، وغير ذلك من الحيل الطبيعية ، ـ يتعجب هؤلاءِ المشايخ ويقولون : نحن والله لا نعرف شيئاً من هذه الحيل . فلما ذكر لهم الخبير : إنكم لصادقون في ذلك ، ولكن هذه الأحوال شيطانية ، أقرّوا بذلك ، وتاب منهم من تاب الله عليه لما تبين لهم الحق ، وتبين لهم من وجوه أنها من الشيطان ، ورأوا أنها من الشياطين ، لما رأوا أنها تحصل بمثل البدع المذمومة في الشرع وعند المعاصي لله ، فلا تحصل عندما يحبه الله ورسوله من العبادات

الشرعية ، فعلموا أَنها حينئذ من مخارق الشيطان لأَوليائه لا من كرامات الرحمن لأَوليائه .

والله سبحانه وتعالى أَعلم بالصـواب ، وإِليه المـرجع والمآب ، وصلى الله وسلم على محمد سيد رسله وأَنبيائه ، وعلى آله وصحبه وأَنصاره وأَشياعه وخلفائه ، صلاة وسلاماً نستوجب بها شفاعته .

آمين

فهرس الأحاديث والآثار

* * *

دليل الكتاب